

العدد: ٢٣ / السنة السادسة / (مارس - أبريل) ٢٠١١ www.hiramagazine.com مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين

أطياف النور

طيف شعاع طريقَه يتلَمَّس، يضيء الجنبات ويداعب السهول والهضبات... والزمن الآتي، نورٌ كلُّه سيغدو...

وتعود الآهات الحزينات، هانئاتٍ مسرورات، كأنها لأدعيتنا أُعطيات ولتضرعاتنا إجابات...

***





نظرة إجمالية إلى الإسلام



الجمع بين القراءتين



رحلة الصعود الملائكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

العدد: ٢٣
السنة السادسة
(مارس – أبريل) ٢٠١١

فكر الجمال وإجمالية الفكر

في مفتتح هذا العدد من "حراء" يطالعنا مقال الأستاذ "فتح الله كولن" والمعنون "نظرة إجمالية إلى الإسلام". فيحاول الأستاذ في هذا المقال أن يجمل كبرى الأفكار الإسلامية، وأن يشير إليها إشارات مقتضبة ولكنها مفصحة، ثم يترك للقارئ الكريم فرصة للتعرف على المزيد من هذه الأفكار والمفاهيم في مظانها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما مقاله الآخر "السلوك وفتح القلوب"، فهو قمة من قمم الفتح القرآني الذي يصعب على غير الأستاذ التعبير عنه. وأما بركات محمد مراد -مع حفظ الألقاب العلمية- فيحاول التوكيد على أن مضامين الإسلام التربوية، تتجاوز الإنسان المسلم إلى بيئته التي يعيش فيها، فيترك عليها بصماته في التنظيم والإتقان والإحسان والجمال.

والأرض في هذه البيئة الأعظم للبشرية كلها، فإنها في حاجة -كذلك- إلى مَن يرثها أولاً، ثم يشكّلها تشكيلاً جماليًّا يخرجها من عالمها الفوضوي إلى عالم الخير والحق والجمال. ولكن هناك شروطًا لوراثة الأرض إذا تمت تمت الوراثة وتم العمل على إصلاحها كما هي في مقال الأستاذ "الشاهد البوشيخي" المعنون بـ"الأرض وشروط وراثتها".

وليس ببعيد عن التربية والجمالية، نقرأ مقال أديب الدباغ "حوار بين معلمة وتلميذة" يتحدث فيه عن دلالات حمرة الخجل التي تصطبغ بها وجنات العذارى عندما يلتقين الرجال الغرباء عنهن.

والكون والكائنات خلق موزون وموسق، تشيع في أرجائه موازين تكاد تصبح -بحد ذاتها- نغمًا يفصح عن ذاته، فهذه الموسيقى تنتظم العالم كله، من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه، وهذا هو ما تحدثنا عنه السيدة "جولي آن كانينغهام" -من منطلق خبرتها كموسيقية عازفة- في مقالها الموسوم "موسيقى الكائنات"، وعن فعل الموسيقى في النفس الإنسانية والعقل الإنساني. أما الأستاذ "أحمد عبادي" فيتحفنا ببعض لفتاته الذكية واستقراءاته من الآية الكريمة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فهو يقول: إننا مأمورون بقراءتين، الأولى قراءة في الخلق، والثانية قراءة في الكتاب المسطور، ودلالات ذلك في النفس والكون والحياة.

ثم يأتي مقال الأستاذ "محمد عمارة" الموسوم بـ"المسلم والجمال" إطارًا لكل القيم الجمالية التي وردت في ثنايا المقالات السابقة، حيث يبين ما في الإسلام من معالم جمالية من حيث المبنى والمعنى هي قوام حضارته في كل أزمنته.

هذا ما استطاعت هذه السطور استيعابه من إشارات إلى مقالات البعض من كتاب المجلة، أما الآخرون فنحن طامعون بكرم تفهّمهم وتقديرهم، ومن الله تعالى التوفيق والسداد. ■

المحتويات



فتح الله كولن



نظرة إجمالية إلى الإسلام-١

أ

الإسلام مشتق من مادة السلم والسلام، ومعناه استسلام العبد لله تعالى، وانقياده لأوامره، وانخراطه في السير في طريق سليم وسديد نحوَ السلامة، وبثُّ الأمان في الناس وفي كل شيء، كما يعني سلامة الآخرين من لسانه ويده.

أساس الإسلام ومبدؤه هو الإيمان والإذعان، ومنتهاه الإحسان والإخلاص. وحقيقةُ الإسلام بإيجازٍ، هي أن يصدِّق المرء بحقيقة الألوهية تصديقًا لا يحتمل الضد مطلقًا، ويوثقَ رابطة قلبه بالحق تعالى، ويؤديَ التكاليف أداءً دقيقًا ورقيقًا وكأنه يرى الله تعالى أو يراه الله تعالى، وأن يسعى في بلوغ رضا الله في كل عمل يعمله.

وقد عرّف بعضهم الإسلام تلخيصًا بأنه: "التسليم لله ﷻ وإظهار الانقياد والولاء له بالشكر

قـولاً وفعلاً وحـالاً، والمكوث في الرغـب والرهب الدائم". فالذي على هذا الحال، يسمى مؤمنًا أو مسلمًا -وليس إسلاميًّا (Islamist-İslamcı)[1]- ويعتبر مرشَّحا لنيل السعادة الأبدية.

إن الإسلام الذي يستند إلى الوحي الإلهي، وبلَّغه الرسول ﷺ وتَمثَّله وأحياه وطبَّقه.. دين سـماوي. والمؤمن والمسـلم هو من يجعل الإيمان بهذا الدين، إحياءً لحياته. ففي أسـاس الإسـلام وباطِنـه الإيمـانُ والإذعان والتسـليم، وفـي ظاهره الطاعةُ والانقياد والعمل الصالح. وعرَّف السـلف الدين بأنه: "وضـع إلهي سـائق لذوي العقـول باختيارهـم المحمود إلى الخيـر بالـذات". وإنما يمكـن الحصول على الثمـار الدنيوية والأخروية لمنظومـةٍ حركيةٍ فعَّالة كهذه بقـدر جعلها عنصرًا لإحيـاء الحيـاة، وبمقـدار تمثّلهـا فـي الواقـع. وإلا فيتعسـر الحديث عن محاسنها إذا أقصيت إلى خارج الحياة.

ومع الانتباه للتمييز اللغوي بين الإسلام والإيمان، فالرأي الأرجـح المقبـول، هو أنْ لا إسـلام بدون إيمـان، ولا إيمان بدون إسـلام؛ الإيمان باطن، والإسـلام هو الظاهر بانعكاسـه علـى القـول والفعل والحـال. والنظـام الإلهي الذي نسـميه "الديـن الحـق" هو الأمر الجامع لذلك كله. فالدين هو عنوان إلهـي يعنـي أنْ يكـون الإيمـان والإسـلام بجميـع شُـعَبهما وكلياتهمـا حيـاة للحيـاة. وإن القبـول بهـذا النظـام على هذا الوجـه وتطبيقَه في واقع الحياة، هو التصرف المؤمن، والذي يمثلـه بهذه الحال هو "المتديّن" التقي وليس "الديني".[2] فبناءً علـى هـذا، الذيـن يظنون أن الديـن مجردُ "اعتقـادٍ"، وكذلك "المسلمون بالثقافة" الذين لم يتقبلوه قبولاً خالصًا في صميم قلوبهـم، كلاهما مخدوع. وجليّ أن كلتـا الزمرتين محرومة، وستحرم، من حسن ثواب الدنيا والآخرة التي وعد الله ﷻ به أهل الدين والتدين.

الإيمان والعمل

لكـن لا يصح احتسـاب العمل جزءًا من الإيمان اسـتنادًا إلى مـا ذكرنـاه آنفـا؛ فمن اعتقد بـأن العمل فرض ثم تَـرَكَ إقامتَه وإجـراءَه على وجهه فمع أنه يكون آثمًا ومرتكبَ ذنبٍ، لكنه يعتبـر مؤمنًـا. ولا علاقـة لهذا الـذي نقوله بأفـكار "المرجئة" البتة، ذلك بأن الاسـتهانة بالذنوب مع الإيمانِ شـيء، وتقويمَ المسـألة في إطارِ "أن الله إن شـاء غفر، وإن شاء عذب" شيء آخـر. والإيمـانُ -حسـب القرآن- أصـلٌ لابد منه، وأسـاسٌ ضـروري لا يقـوم شـيء إلا بـه، وأما الإسـلام فهو الوسـيلة الوحيدة لصيرورة الإيمان من أعماق طبع الإنسان.

فالعمـل مـن غير إيمـانٍ نفـاقٌ، وتركُ العمـل رغم وجود الإيمـان فسـقٌ. ولا يُغفر عن النفاق بتاتـا باعتباره كفرًا مخفيًّا ومضمرًا، أما الفسق أو الفجور، فيحتمل فيه المغفرة -في كل وقـت- بالتوبـة والاسـتغفار والإنابة إلى الحـق تعالى. وبهذا الاعتبار، ينبغي أن نحافظ على حسـن الظن بحق تارك العمل الذي لا يزدري به أو لا يستحقره أو لا يستهين به، وأن لا نحكم عليه بالكفر؛ وأما تارك العمل الذي يستحقر المؤمنين لكونهم مسـلمين ويُسَـفِّههم، فللظن بـه وجه آخر غيـر الوجه الأول.

ويَجـدر أن نذكّر ههنا، بأن محطّ الإيمان ومحل انكشـافه هـو القلـب والوجـدان، وبـأن الله تعالـى يريـد -بمقتضـى الإسلام- أصلاً مهمًّا آخر مع هذا القبول الوجداني، ألا وهو العمل الصالح والخلُق الحسن. فمِن هذه الوجهة، ينبغي على المؤمـن أن يحفـظ -في كل وقت- ما صدّق به وآمن، سـواء الأمور النظرية أو الشؤون العملية، إلا أن يُكره أو يُضْطر.

نعـم، كمـا أنـه لابـد مـن تجنّـب الشـرك وكلِّ شـوائب الشـرك، لكي نكون مسـلمين، ينبغي -كذلـك- تعليق القلب بـالله بإخـلاص، وعبـادةُ الله كأننا نـراه أو كأنه يرانـا، وإجراءُ التصرفـات الاجتماعيـة في إطار "الخلُق الحسـن" الذي يأمر به الإسـلام... وذلك كلـه، انعكاس لصور الروح الإسـلامية على حياة الإنسـان بأبعاد تجلياتها المختلفة. إن هذه الشؤون التـي يمكـن أن نُرجعهـا إلـى الإيمان والإسـلام والإحسـان -كمـا ورد في حديث جبريل المشـهور- هي بعينها، سلسـلةٌ مـن اللوازم المرتبطة ببعضهـا البعض والمتداعيـةِ فيما بينها، وأعماقٌ مختلفةٌ لشـأنٍ واحـدٍ، مع الأخذ بالاعتبار أن الأصل الأسـاس هـو الإيمان، وذلـك باعتبار فروق الظاهـر والباطن للحقيقـة الواحدة. إن الباطن يسـتدعي الظاهـر ويربو به، وإن الظاهر يستند إلى الباطن ويتأسس عليه ويقوم به. وإن العملي هو صوت لروح النظري وجوهرِه.

فمـا دام أصل المسـألة كذلـك، فادعـاء أن الدين محضُ مسـألةٍ وجدانية، اسـتهانةٌ بروح الدين ووقاحةٌ وتجاوُزٌ للحد. والـذي يُظهِـر قبولَـه للديـن -والله يتولى السـرائر- ثم يقول: "اعتبـرْ بمـا فـي قلبي"، ثم يتعـدى ذلك إلى اعتبار الانشـغال بالجوانـب العمليـة للدين تطرفًـا، فإنما يُمنّي نفسـه بالأوهام

الفارغة ويستتر عن المؤمنين بقناع الإيمان. إن تفسير الإيمان والإسلام تفسيرًا يمالئ أهواء الناس وغرائزهم، يخرجه عن دائرة الدين السماوي، ويجعله نظامًا بشريًّا؛ والأصل أن الإسلام وضْعٌ إلهيّ إلى البشر لإنقاذهم من الأهواء والغرائز وربطهم بالحق وهداية الحق تعالى. أو بتعبير آخر، هو مجموع السنن الإلهية المنزلة لإخراج البشر من سجن الحيوانية وضِيق الجسمانية، وتجهيزِهم للانطلاق والسياحة في الإقليم الرحيب الفسيح للقلب والروح. وإن روح هذا النظام الذي لا نظير له هو الإيمان، وجسدَه هو الإسلام، وشعورَه هو الإحسان، وعنوانَه المعظم هو الدين.

الدين -وكما قلنا في البداية- يخاطب العقلاء وأصحاب الشعور، ويوجههم بإرادتهم واختيارهم إلى الخير الدنيوي والأخروي، ويَعِدُ المستجيبين له، بالسعادة الأبدية. إن موقع المكلفين حيال الدين ليس الانسحاق تحت مسؤولياتهم إزاءه، بل -انطلاقًا من حقيقةِ "الخالقُ أعلم بخلقه"- تعليق الصلاح والحَسَن والخير والسعادة الأبدية بإرادتهم -في مستوى الشرط العادي- في علم الله وبإرادته وتقديره، تكريمٌ وتلطيفٌ من المشيئة الكلية إلى الاختيار الجزئي الموهوب لهم قديمًا. والدين بهذا الوجه من حيث أداؤه المعبّر عن الألوهية وتفسيرُه المعبر عن العبودية، يختلف اختلافًا بيّنًا عن التنظيمات المتشكلة في صورة أديان؛ فأولا وقبل كل شيء، المخاطَبون في هذا الدين هم أصحاب العقول والإرادةِ، الذين يسْعَوْن إلى تطبيق هذا النظام الذي وضعه الله تعالى، ويَجِدُّون في تمثله. وبهذا الاعتبار يمكن تفسير الدين من وجهة أخرى بأنه: لطفٌ وتوجهٌ خاص إلى جاهزيةٍ خاصة. فإن عديم العقل والإرادة، ليس مكلفًا بالدين، وليس محلا للتوجيه إلى الخير.

الدين والعقل

نعم، إن العقل والإرادة هما الشرط الأول للدين وأهم أركان "التدين" الذي معناه أن يكون الإسلام حياةً للحياة. ويعني هذا، أن من لا عقل ولا إرادة له، ليس محلاً للتكليف بمسؤولية الدين التي تتطلب قابلية التمييز بين الخير والشر. فهو في حِلٍّ من الدين الذي هو مجموعة القوانين الإلهية، التي تَشترط العقلَ والاختيارَ أولاً، ومن التدين الذي هو مِن خَلقِ الله تعالى وكسبِ البشر.

وإن هذا الدين -باعتباره وضعًا وتكليفًا من العليم بخلقه- يرشد ويقود إلى الخير أبدًا، ويُجيش القلوب بوعدِ حُسن العاقبة، ويدعو إلى التحوط والحذر بوعيدِ سوء العاقبة. وأوامره ووصاياه في هذا الصدد، باقية وثابتة لا تَخلَق جدَّتها. فإن هذه الأوامر والوصايا، ذات أداء أزلي وهندام أبدي... تَخْلَق الأنظمةُ كلها وتَبلَى، وتبقى هي جديدةً وندية ومغبوطة، إلا في عينِ مَن مَنعتْه الأحكامُ المسبقة من النظر السليم. فما من وسيلة أو طريق للخير والسعادة من نتاج عقل البشر، إلا ويُحكم عليها بالزوال أو القِدم.. ويَعرض عليها التبدل من مجتمع إلى آخر، وتترهل وتخرق بمرور الزمان، وتستهلك وتتهرأ بالغلط والتصحيح المستمرَّيْن... فهي لا تتعدى أن تكون "نُظَيْماتٍ" تُمَنِّي بخيرات نسبية وإضافية في مستوى معين، بل تبدو وكأنها تُمَنّي بالخيرات بالنظر إلى ظاهر أمرها، لكنها لم تحقِّق قط ما تصبو إليه البشرية في الماضي، ولن تحقق أمانيها البتة في المستقبل.

أما الدين الحق، فقد جاء برسالات البُشرَى التي تستجيب لكل مطالب الإنسان المخلوق للأبدية، والمرشحِ لها، والمتقلب دائمًا في آمال السعادة الأبدية. وإذ جاء بها لم يكلِّف الإنسانَ بتكليفٍ يخالف ماهيته وذاته، ولم يُهمِلْ رغبةً مِن رغباته ولا مطلبًا من مطالبه؛ فالعقول السليمة والأفكار المستقيمة تُقِرُّ أنْ لا إغفال ولا إحجام في هذا الدين عن رغبات الإنسان ومطالبه وأمانيه، ولا تَناقُض في أوامره التكوينية أو في تفسيرها. وفوق ذلك كله؛ إنه منظومة ممتازة، مفصلة حسب ماهية الإنسان وقابلياته وآماله وميوله، يَعِده ويرجيه بالسعادة الأخروية ورضى الحق تعالى وإمكان رؤية الله سبحانه.

الدين والطمأنينة

وما دام امرؤ يعيش حياته وفاقًا لدين الإسلام، فإنه يستفيد من النعم المشروعة كافة في هذه الدنيا، وكذا يقضي عمره في نشوة السير في الدروب الموفية إلى الجنة بملاحظة الاطمئنان إلى حظوته بمزيد من ألطاف الحق تعالى حينما يحين الأوان، مع نوال الثواب وحسن الجزاء في الأخرى بقدر يتعدى الخيال والتصور. هذا، وإذا وسعه أن يعيش حياته بالارتباط الدائم مع رضا الحق تعالى -وهو الأساس في التدين- فلعلنا لا نكون مبالِغين إذا قلنا إنه يباري الملائكة. وبالمقابل، يقف

المتنكر للدين الحق، والمنقادُ "لعقل المَعاش"، والمنتسبُ إلى تنظيمات مختلفة متشكلة في صورة أديان، والمُناصرُ للنُّظُم البشرية أو الدنيوية (اللادينية)... عاجز عن تبيان ما يُطَمْئِن الإنسانَ أو يُقنعه بشأن حاضره وقابله، وسوف يعجز لا محالة! لأن هذا الدين هو نظام الله في الأرض. والله هو الخالق، والخالق هو الأعلم بكل شيء. ولا جرم أن كل فكر ومنهج ونظام بشريّ لِما أنه نتاج الإدراك المنحصر، من الممكن أن يعتلّ في أغلب الأحوال بعلات الأغراض والمنافع الشخصية أو العائلية أو القومية. ولذلك هي مُنْبَتَّةٌ لا تُوصِل إلى الخير المطلق، ولا يُرتجى منها السعادةُ الأبدية. فالمنظومات والنُّظُم المختلفة المحصورُ أفقُها بالأغراض الشخصية والنعراتِ العرقية والمصالح الطبقية والفئوية، مهما بدت متكاملة، فلن تستجيب لرغبات الإنسان ومتطلباته غير المحصورة. فإن من طبيعة هذه الأمور أن يكون أصحابها ذوي ذهنٍ كدر، وعقلٍ مشوش، ومنطقٍ أعمى، وشعورٍ قصير النظر، ووجدانٍ وبصيرةٍ ملبدةِ الأفق بالدخان والقتام... فهم لا يستطيعون أن يبصروا ما ينبغي أن يُرى، وإن يبصروا يبصروا شتاتًا وشيئًا معوجًا، فتخرج تفسيراتهم مثقلة بالأغلاط وكليمة بالأخطاء.

الدين الحق نظام فريد لا يُضِل، ووضْعٌ إلهيٌّ فسيح ورحيب يفتح آفاقًا دنيوية وأخروية جديدة. فهذا النظام اللاهوتي "دينٌ" باعتبار أبعاده الاعتقادية، و"شريعةٌ" من وجهته العملية، و"ملّة" بوظائفه الاجتماعية... وهذه المعاني هي المقصودة متى ما نقول: "الملة الإسلامية". الواقع أن أسلوب إجراء الحركات والفعاليات كلها يتوافق مع جوهر الإيمان، وكيفما كانت الصورة التي عليها الإيمان. والهيئة الاجتماعية تأخذ شكلها حسب تلك التصرفات والسلوكيات والفعاليات. ولذلك يجب على المؤمن الذي آمن إيمانًا سديدًا، وجعلَ هذا الإيمانَ بالعمل الصالح عمقًا من أعماق طبيعته وجِبِلّته، أن يكون عاشقًا للحقيقة، ومنحازًا إلى الحق، وعادلا، ومستقيمًا، وأمينًا، ومثالًا للخلق الحسن، وسالكًا سبيل العلم والمعرفة، ومشدودًا شدًا مُحْكَمًا إلى الجاذبية القدسية للدين، ومنشغلا بدافع الارتقاء إلى موقع العنصر الفعال في الموازنات الدولية... فتجده متحفزًا في هذه الأحوال، بل لابد أن يكون كذلك، وأن لا يتأخر طرفة عين حتى يحقق ما يريد.

حينما تنتبه هذه "الأمة" إلى أنها الأمة المصطفاة من الله، وأنه هو اختار لها اسم "المسلمين"، ستتوجه إلى ربها الكريم، وتستسلم لحكمته، وتسمو في النهاية -لا محالة- إلى حال التعبير عن ذاتها بالصورة التي يريدها الحق تعالى.

موازين الحق

إن المؤمن الذي كَمُل إيمانه وارتقى إيمانه إلى مرتبة الإذعان، وأعمالُه كلها موزونة بموازين الحق، وقلبُه موصول في كل وقت بربه، وتصرفاتُه كلها منطبعة بتلك الصلة الربانية... هذا المؤمن لن يستوقفه هذا وذاك، ولن يدور البتة في فَلَك الآخرين مهما كانوا؛ يقوم ويقعد حاملاً شعور الانتماء إلى أمة شريفة ممسكة بالمركز (أمة الوسط)، ومتميزًا بخصاله في كل حركة من حركاته. إنه يحس بتوقير غائر حيال كل إنسان وكل شيء مخلوق، لأجل الخالق، ويتوقى من الدنايا التي لا تأتلف مع نعمة "الإنسانية"، ويَبرز بين الناس بفائقيةِ دينه وإيمانه وفكره وسلوكياته، وإذ يتصرف كذلك، لا يعتريه قط استعلاءٌ أو كبر، ولا يفكر في إكراهِ غيره على قبول فهمه وفلسفته في الحياة. فهو يتقبل الآخر "كَمَا هُو" بملاحظةِ أن النظام الذي آمن به يَقطع سبيل الإكراه في الدين؛ فيعيش بمحبةِ مسلكه ومشربه بدلاً عن إجبار الآخرين على معتقداته، ويُشهر أفكاره ومعتقداته ويمثلها تمثيلاً سليمًا، ويعتني عناية شديدة بأن يكون أنموذجًا يغبطه الناس، وإذ يقوم بذلك، لا يستجدي إعجابًا ومديحًا من أحد قطّ، بل يَحتسب كلَّ عمل من ضرورات السبيل لكسب رضى الحق تعالى؛ فلا يفكر إلا في مرضاة الحق تعالى في كل قول وعمل وسلوك، ويعرف أن المباهاة والبهارج جراثيمُ تَقتل القلب، ويتمسك بالحق تعالى بإخلاص كامل، ثم يمضي في مسيرته.

فالأصل أن الإسلام جاء لإنقاذ البشر من الإكراه، وتحفيزهم لاختيارٍ جديدٍ بإرادتهم الحرة مخاطِبًا عقولهم ومنطقهم، وليس لدفع أتباعه إلى الضغط على هذا وذاك للقبول بنظام معتقداتهم أو إكراههم عليه. ففي الأيام التي

طُبِّق الدين بلا نقص ولا فتور، فإن جاذبيته المعنوية لم تَدَعْ حاجةً إلى ألاعيبِ المنطق الملتوية، أو القوة الطائشة، أو القهر الصريح أو الخفي، أو الجبر والإكراه؛ فلقد نطقت الحالُ وأبانت، ووضَّح اللسانُ المبهماتِ، فإذا خلا الميدانُ للقول، خوطب الوجدان، وبَشَّر البيانُ وأنذر، متحليًا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يُضغَط على أحد لا قولا ولا فعلا ناهيك عن الإكراه والجبر، بل كان الإكراه والجبر ممتنعًا، لأن الإسلام لا يَقبل إيمان المكرَه والمقهور، ولأن الأعمال القائمة على الجبر والقوة القاهرة تُناقِض جوهره وروحه. بل لا يَحتسِبُ الدينُ الحقُّ من العبادات عملا ليس في أصله الإخلاص أو رضى الله تعالى. فلا يَرى في إيمان المكره والمقهور إيمانًا، بل نفاقًا، ولا الأعمالَ أعمالًا، بل رياءً بشُعبها كافة. لذلك، لا يجيز الإسلامُ الإكراهَ في الدين، ويمنعه بنص القرآن: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)، فيقطع دابرَ القهر لأنه يَعتبر الرياء عينَ النفاق، ويَعتبر النفاقَ كفرًا مستورًا. والحال أن الإسلام جاء ليقتلع جذور الكفر، ويمحوَ الشرك من الشعور والفكر، ويُغلقَ أبواب الرياء والسمعة.

لكنَّ مَنْعَ هذا الإكراهِ والجبر، لا ينفي الإجبار الداخلي للوجدان، أو التأثُّرَ والميل الشبيه بالقهر، المتولدَ في القلب المؤهلِ لمعرفة فضل التوقير وحق الاحترام حيال التعبير عن الحق قولاً وفعلاً. فمن الطبيعي أن يخاطَب وجدانُ البشر جميعًا بالأسلوب القرآني في كل فرصة متاحة، وأن تُحَفّزَ الفطراتُ السليمة، وأن تُخلَّصَ البشريةُ من الشرك وشوائبه بتوجيه القلوبِ الممهدةِ والمستعدة، إلى الله تعالى، ويُهَيَّجَ الإيمان ونورُ الإسلام وشعورُ الإخلاص والإحسانِ في القلوب، بتبليغ الناس جميعًا أنَّ أصفى الهداية وأخلصَها ممثلةٌ في سيدنا محمد ﷺ، وأن حقيقة الإنسان والأشياء والكائنات قد نودي بها في القرآن، وأن الحُكم والحكمة في قبضة الله تعالى. فَبذلك يُبعث في القلوب نورُ الإيمان والإسلامِ وشعورُ الإحسان والإخلاص، ويُنادَى الجميعُ إلى

> **الإسلام هو مجموع السنن الإلهية المنزلة لإخراج البشر من سجن الحيوانية وضِيق الجسمانية، وتجهيزهم للانطلاق والسياحة في الإقليم الرحيب الفسيح للقلب والروح، وإن روح هذا النظام الذي لا نظير له هو الإيمان، وجسدَه هو الإسلام، وشعورَه هو الإحسان، وعنوانَه المعظم هو الدين.**

التوحيد الحقيقي. وهذا من الضرورات اللازمة لإيماننا بالإسلام واستجابتنا لدعوة سيدنا ﷺ.

رسالة نبيّنا للإنسانية

إن نبينا خاتمُ الأنبياء، ورسالته التي قَدمها للإنسانية أكملُ الرسالات وأتمها، وأهدى الوسائل إلى الله وأضمنها وأوثقُها؛ ولم ترشِد إلا إلى الصواب والهدى. فمتى ما وَجد هذا الدينُ من يمثّله صدقًا صار ظلاً للحق، يلجأ إليه الناس من كل فئة سراعًا ليتفيأوا في ظله، وأَبطَل سحرَ الأنظمة الشيطانية كلها، ولم يَترك أتباعَه من غير نور حتى في أحلك الأحوال. فإن كان لا يستطيع في الوقت الحاضر أن يعبر عن نفسه تعبيرًا كاملاً، فذلك بعداوة خصومه الألدّاء المستمرة بلا توانٍ منذ عصور، وحقدِهم وبغضهم وتشويههم لصورته ومحاربتهم له من جهة، ولجهل منتسبيه وخذلانهم وغفلتهم من جهة أخرى. ولكن دوام هذا الحال محال؛ فحينما يحين الوقت، فسيَجد الفرصةَ لكي يعبّر عن نفسه كرّة أخرى في مناحي الحياة كافة، ويتكلم بصوته الخاص، ويشعشع في العيون بألوانه ورقوشه الذاتية، ويحسِّس بكنهه في كل مكان بتناغمه وانسجامه السماوي، وذلك بفحوى "الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه" (رواه البيهقي)، وبفضل أوليائه الذين يتولونه بخالص قلوبهم، ويربطون مصيرهم به، فيَجعلون غايةَ خَلْقِهم السيرَ في خطه.

نعم، حينما تنتبه هذه "الأمة" إلى أنها الأمة المصطفاة من الله، وأنه هو اختار لهم اسم "المسلمين" بمنطوقِ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾(الحج:٧٨) فستقول: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(الحج:٧٨)، وتتوجه إلى ربها الكريم، وتستسلم لحكمته، وستسمو في النهاية -لا محالة- إلى حال التعبير عن ذاتها بالصورة التي يريدها الحق تعالى.

والصحيح أن إحراز هذا الموقع من الأمور التي يمكن أن تتحقق فعلاً في كل وقت. فإن الإسلام هو الدين الخاتم الكامل الذي اختاره الله تعالى ليشرِّف به الإنسانيةَ. وهو بختمه وبكماله، تفصيلٌ وبسطٌ وأداء للأديان السماوية كلها حسب



متطلبات الزمان الأخير. لكن هذا النظام الكامل محروم الآن من تمثيل في مستوى تمثيل الشهود الأوائل، ومبتلىً بسوء الحظِ في أيدي نفرٍ عديمي الوفاء، فهو لذلك محكوم عليه اليوم بالانحباس في الضِّيق وهو رحيب، وبالمنع من الكلام بلهجته الخاصة. وهذا يعني -في الوقت نفسه- تضييقًا وحظرًا على الأديان السماوية كافة... إذ من البديهي أن الإسلام جاء مصدقًا للأنبياء جميعًا ولرسالاتهم كلها، مراعيًا ما بلغه إدراك البشر وفهمُه.. فصار بمثابةِ نداءٍ جامعٍ لأصواتهم وأنفاسهم أجمعين. وإن انقطاع صوت هذا النداء السماوي، وفي عصرٍ جمحت وطغت فيه الأفكارُ والمعتقداتُ الماديةُ والطبيعية، هو انهزام وخسران للأديان الأخرى أيضًا تجاه هذه التيارات العفريتية المتمردة، بل يعني انقراضَها تمامًا. فالإسلام ذودٌ عن الدين الحق وصون له. وكذلك هو - باعتبار أن دعوة الأنبياء جميعًا واحدة- بمثابة نقطةِ استنادٍ للنُّظُم السماوية الأخرى ونقطةِ استمدادٍ لها وشاهدٍ يشهد لها. فإحياء الإسلام مجددًا يُعَدّ إحياءً لها أيضًا في معنى من المعاني، بإصلاح الجوانب اللازم إصلاحُها، وتجديدِ وإعمارِ ما ينبغي إعادة تعميره ولو جزئيًّا، وفتحِ آفاق جديدة أمام أَتْباعها بالضوابط ذات الدور التأسيسي فيها. وإني أظن ذلك كله ممكنًا، وأحسب أن وحدة المصدر مُعِين وسند متين في هذا الأمر. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

الهوامش

(١) أنبه أن مسمى "إسلامي" (Islamist) و"ديني" له وقع أثقل على النفس بالتركية، إذ يقال بالنص "إسْلامْجِي" (İslamcı) و"دينْجِي" (Dinci) بحرفي النسبة الجيم والياء (جي)، وبهما أيضًا يُعرف أصحاب الحرف مثل "كَبابْجي" أو "حَلْوَجي" (صانع الكباب أو الحلوى وبائعهما)، فيكون المعنى أثقل في التركية وكأن المبلغ أو الداعية إلى الإسلام صاحب حرفة يحترف الإسلام ويتاجر به. (المترجم)

(٢) الديني: نسبة إلى الدين كما يقال "الإسلامي" نسبة إلى الإسلام. وهذان المصطلحان قد تم استخدامهما من قبل بعض الأوساط المغرضة والمعادية للإسلام -ولا سيما في تركيا- بقصد تشويه سمعة كل مسلم واع يحمل همّ إحياء شعائر دينه وإبلاغها إلى الآخرين.وهذه الأمور تدخل في صراع المصطلحات الثقافية الكثيرة، الحامي على سطح العالم الإسلامي، وفي تركيا خاصة. ومرده إلى قصد التمييز أو الفصل (كل حسب مرامه) بين المسلم وبين المبلّغ أو المرشد أو الداعية. ويراد منه تجريد المبلّغ أو المرشد أو الداعية عن الإسلام في بعض الأوساط، لعزله والاستفراد به. (المترجم)

أ.د. بركات محمد مراد*



الإسلام والتربية البيئية

التربيـة، عمليـةُ تنميـةِ الاتجاهات والمفاهيـم والمهارات والقـدرات عنـد الأفراد في اتجـاه معيـن لتحقيق أهداف محـددة. فمـن تلـك الأهـداف التـي تعمـل التربيـة على تحقيقهـا؛ مهـارات القـراءة والكتابـة، وتنميـة المعلومـات والتفكيـر، والاتجاهات العلمية، وتفهّم ما يوجد حول الإنسان من ظواهر وعلاقات طبيعيـة، إلى جانـب تنمية قـدرات الأفـراد ومهاراتهم، لإيجـاد الحلول لمختلـف المشـكلات التي يواجهونها. فالتربية إذن، تسـعى إلى التعرف على حاجات ومشـكلات الفرد والمجتمعات، وإيجـاد الحلول الواقعية لهـا بمختلـف الوسـائل. والتربية البيئـية، تتعلق بمعرفة الإنسـان، وتنمية معلوماتـه ومهاراتـه، فيمـا يرتبـط بالظواهـر البيئية المختلفـة والعلاقات المشـتركة والتفاعل بيـن عناصر البيئة ومقوماتهـا، وكذلك تنمية قدرات الفـرد على معالجـة الأضرار التي لحقت بالبيئة، إضافة إلى الحفاظ على البيئة وحمياتها. وتتناول التربية البيئية أيضًا، الجوانب التربوية التي تتعلق

ببقاء الإنسان واستمرار رفاهيته ووجوده على هذا الكوكب. هذا بالاضافة إلى الجوانب التي تعالج كيفية تعامل الإنسان مع البيئة ومصادرها، بطريقة تكفل له حسن استغلالها وتؤدي لاستمرار التوازن بينه وبين تلك المصادر، لاستمرار وجوده وتمتعه بمستويات طيبة من المعيشة والرفاهية.

الرؤية الكلية للبيئة

أما الاهتمام بالبيئة المحيطة بالبشر فقديم قدم الإنسان. فالإنسان لا ينفك عن الاحتياج إلى بيئته والتفاعل معها، والانشغال المتخصص بها، والحفاظ على توازنها بالاستخلاف والعمارة وميزان المقاصد الشرعية من الشواغل، تقييدًا لسلطة الإنسان وحركته بإطار الخلافة لله ﷻ وضمن أمانة الإصلاح في الأرض وعمارتها. وهكذا، دخلت علاقة الإنسان بالبيئة في مراتب الضروريات والحاجيات والتحسينات في مقاصد الشرع من حفظ للدين والنفس والعقل والمال والعرض.

وقد تعرضت البيئة في السنوات الأخيرة، لإفساد كبير من قبل الإنسان المعاصر، وذلك بسبب جهله بأبعاد استخلافه في الأرض وتجاهله لما يعنيه التسخير. والتسخير هو أن يستفيد ابن آدم مما هيأه الله ﷻ له في الأرض من أسباب الحياة دون إفراط أو تفريط، ودون إخلال بالنواميس الكونية التي سنها الخالق ﷻ، والتي تستهدف الحفاظ على ديناميكية هذا الوجود واستمراريته.

ولو أخذنا معالم نظرية البيئة لوجدنا الفقه الإسلامي القديم والحديث قد تعرض لمكوناتها، ولكن في المواضع التي ترتبط بها في مجال العقيدة أو العبادة أو التشريع القانوني بأقسامه، أي في مكانها من خريطة العقل المسلم في تكييفه لها. فالرؤية الكلية تدخل في المكونات الإبستمولوجية للنظرية البيئية، كما تدخل -في المقابل- في العقيدة الإسلامية التي ترى الإنسان سيدًا في الكون لا سيدًا للكون، ومستخلَفًا من قبَل الله ﷻ على الكون، فلا هي -الرؤية الكلية- مركزية بشرية يستنزف فيها الإنسانُ الطبيعةَ، ولا هي مركزية للطبيعة تساوي بين الإنسان والمادة والإنسان والحيوان، وتتجاهل خالق الكون ورسالة البشر وأمانتهم المسؤولة في الدنيا والآخرة. والاستدامة تدخل -في نظرية المقاصد- في العدل كمقصدِ وحفظِ المال، ومراتب هذا الحفظ والقيم الأخلاقية، لا تقتصر على المسؤولية تجاه الأجيال فحسب، بل المسؤولية أمام الله عن الموارد والكائنات، بدءًا من التوجيه النبوي بعدم السرف في الماء ولو للوضوء، ومرورًا بالرحمة الواجبة بالحيوانات التي قد تُدخل الجنة وقد تُدخل النار، ثم بالتواصل مع كل مكونات الكون النباتية، بل مع كل الجمادات التي تسبح الله ﷻ.

عند استقصاء حكمة الخالق ﷻ في إبداع الكون وتكوينه، ينبغي أن يستشعر الإنسان حقيقة البُعد الجمالي في العلاقة بين الإنسان والبيئة، وهو ما يقابل القصد الإلهي في إبداع الكون؛ الجميل الصفات، العجيب التلوين والتكوين.

الانسجام الروحي مع البيئة

إن الشعور بالسلام بين المسلم وبين الحياة والأحياء، مسألة ذات قيمة شعورية، وذات أثر كبير في حياة الإنسان الواقعية. فهو يستطيع بهذا الشعور أن يمضي في طريقه مطمئنًا، ويكتشف سنن الحياة ليجعلها طريقه للخير.

فالسلام الروحي ضروري للإنسان، وأُولى مراحله السلامُ مع الكون والبيئة من حوله. لقد كان رسول الله ﷺ يحب الكون ويحب بيئته، فكان يفرح برؤيته الهلال إذ يقول: "اللهم أهلله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله" (رواه الترمذي)، وكان يقول ﷺ عن أحد: "هذا جبل يحبّنا ونحبه" (رواه البخاري). فهذا الشعور الإسلامي الصحيح اللطيف، لا ينشأ في القلب إلا بالمعرفة الصحيحة لحقيقة الكون.

ومن روائع ما جاء به القرآن الكريم، وأكدته السنة النبوية الشريفة، تدريب المسلم إذا أحرم بالحج أو العمرة، أن يحترم البيئة فلا يُحلّ صيدها، ولا يُقطع شجرها... ولعل من أوائل ما حفظناه من الأحاديث النبوية الشريفة هو: "دخلتْ امرأة النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض" (متفق عليه)، وأن بغيا من بغايا بني إسرائيل، غُفر لها لسقيها كلبًا كان يلهث من العطش. ومن الترهيب في حديث السدرة إلى الترغيب في جعل غرس النبت من أعظم الأعمال الصالحة إذ يقول ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة" (رواه مسلم).

وتتميز هذه العلاقة بخصائص وأبعاد أهمها؛ أنها علاقة توازن وألفة وانسجام لصالح الحياة والأحياء بما فيهم البشر.

وقد بدأ كثير من علماء الطبيعة اليوم، يفيقون من الوهم الذي هم فيه، ويدركون ضرورة عودة الوفاق مع الطبيعة، وأهمية انسجام الإنسان مع الكون، خاصة بعد كشف كثير من آليات الطبيعة وظواهرها، والإدراك لذلك التوازن الدقيق بين قوانينها، وعلى ذلك يقول عالم الحيوان الألماني "إرنست هايكل" بأن الإيكولوجيا (علم تناسق الطبيعة)، تستهدف تسليط الأضواء على علاقات متبادلة لم تكن تخطر على بال.

ومن هنا، ندرك مدى دقة القرآن الكريم في التعبير عن العلاقة بين الإنسان والبيئة المحيطة به، بأن كل مكونات البيئة في هذا الكون الفسيح، قد أعدها الله ﷻ لاستقبال الحياة ولكفالة الأحياء فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾(لقمان:٢٠).

كما أكدت السنة المطهرة علاقة المودة الصافية بين الناس وما تحتويه بيئتهم من موجودات حية وغير حية، وقد كان رسول الله ﷺ يقول عن جبل أحد: "جبل يحبّنا ونحبّه".. هذا الشعور بالقربى يلقي في النفس بُعدًا إيمانيًّا، يزيد من انفساحها للكون والإقبال على التعامل معه بكل الطاقات الإبداعية، وحينما قال ﷺ: "أكرموا بني عماتكم النخل" (أخرجه أبو يعلى)، فذلك تعبير منه عن وشائج الألفة بين الإنسان وعناصر الطبيعة، ألفة نبتت جذورها من الوحدة المتعددة المظاهر بين الإنسان والكون. ومن البيّن أن هذا الأثر النفسي من المودة والألفة، ينفي من نفس الإنسان مشاعر الخوف والعداء التي تتأتى من اعتقاد الغربة والتناقض، وانتفاء هذه المشاعر هو الشرط الأول لصنع مناخ نفسي تستعد فيه نفس الإنسان، للإقبال على الكون والانفتاح عليه والتعامل معه بتلقائيه ويسر. ومن المبين أن افتقاد البشرية لهذا البُعد الإيماني والشعور النفسي، القائم على المعرفة الصحية لطبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة (الكون) -كما يعرضها المنهج الإسلامي المتفرد- هو الذي يدلنا على طبيعة الحرب التي شنها الإنسان على نفسه في غمرة انشغاله بثورة العلم والتقنية.

ومن هنا، نجد عناية الإنسان في الإسلام تمتد إلى كل مظاهر الكون، سواء هذا الكون المادي أو ذلك الكون المتمثل في الكائنات الحية من نبات وحيوان وطير. واعتبر الرسول ﷺ غرس الأشجار وتطهير الأنهار وحفر الآبار وغيرها من الأعمال النافعة صدقة جارية فقال: "سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: من علّم علمًا، أو أجرى نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجدًا، أو ورث مصحفًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته" (رواه البزار).

وقد امتدت عناية الإسلام، بالرحمة والإشفاق على الحيوانات، باعتبارها أحد العناصر الحية في البيئة. فالتربية البيئية تساهم في رفع مستوى الوعي البيئي لدى الناس، وفي تغيير العادات غير المرغوبة بيئيًّا وتبديلها إلى سلوك بيئي إيجابي يساهم في تحقيق التنمية المستدامة.

مبادئ التربية البيئية

إن التربية البيئية تتطلب جهودًا مختلفة واختصاصات متنوعة لكي تستطيع تحقيق أهدافها. ومن المبادئ والمعايير الأساسية لتوجيه الجهود الوطنية والإقليمية والدولية للأوجه المختلفة للتربية البيئية الآتي:

• تتطلب التربية البيئية، تكامل العديد من الاختصاصات المختلفة مع الأساليب والخبرات التربوية، وبالتالي يكون من الضروري، أن تساهم فيها كل مواد الدراسة والنشاطات التي تشرف عليها المدرسة.

• من أهم أهداف التربية البيئية، هو الوصول إلى رفع مستوى الإدراك والوعي البيئي لدى الأفراد والمجتمعات، وإكسابهم المعرفة والمهارات، للمشاركة في تحمّل مسؤولياتٍ في حماية البيئة بصورة أكثر فعالية.

• من الضروري أن تعمل التربية البيئية على ترسيخ مفهوم العلاقات المتبادلة بين الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والتنموية وبين عناصر ومقومات البيئة، هذا إلى جانب الترابط والتكامل بين البيئة والتنمية.

• يكون لزامًا على التربية البيئية، أن توفر المعلومات الضرورية وإكساب المهارات اللازمة، لتفسير هذه العلاقات المتبادلة بين البيئة والتنمية، وكذلك النظم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من النظم.

• على التربية البيئية، العمل على إيجاد الترابط بين الإجراءات والأساليب التربوية، وبين واقع حياة الإنسان التي تشمل -ضمن واقعها- المشكلات والقضايا البيئية في المجتمع.

• لابد من اعتبار أن التربية البيئية عملية مستمرة، وذلك

لتجديد المعلومات والمهارات بما تتطلب حماية البيئة وعملية التنمية.

• يجب أن تشمل التربية البيئية أو التثقيف البيئي، جميع الفئات الاجتماعية والعمرية في المجتمع، بما في ذلك الجماعات المتخصصة المختلفة. ولزيادة فعالية التربية البيئية، يكون من الضروري إدراجها ضمن التشريعات والسياسات والخطط التنموية للدولة.

• ضرورة إدخال المفاهيم البيئية في نسيج المواد الدراسية التخصصية، وكذلك إدخال الاعتبارات البيئية في النسيج التربوي والثقافي، في مراحل تدرجه في سلك التعليم العام. وكذلك العمل على تعميق الوعي البيئي عند التلاميذ، بحيث يترسخ في تفكيرهم، ويتحول إلى عناصر سلوكية تحافظ على البيئة، وتراعي العلاقات الوثيقة بين حياة الإنسان وصحة البيئة.

إن الدعوة القرآنية إلى تأمل الجمال الكوني، هي دعوة إلى الارتفاع بعلاقات الإنسان بالكون والبيئة إلى مستويات عليا من السلوك والرؤية الإنسانية النبيلة، في مستويات الإصلاح والإعمار التي لا تقتصر على الإصلاح المادي، بل تتعداه إلى الجمال المعنوي البادي في الكون.

القيمة الجمالية

هناك بُعد جديد يغيب عن كثير من الباحثين والمهتمّين بشؤون البيئة، ولكنه لا يغيب عن الرؤية الإسلامية، ذلك هو البُعد الجمالي الذي ينبغي أن نضمنه للتربية البيئية للطفل والشاب المسلم. فعند استقصاء حكمة الخالق ﷻ في إبداع الكون وتكوينه، ينبغي أن يستشعر الإنسان حقيقة البُعد الجمالي في العلاقة بين الإنسان والبيئة، وهو ما يقابل القصد الإلهي في إبداع الكون؛ الجميل الصفات، العجيب التلوين والتكوين، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر:٢٧-٢٨).

وهذه الدعوة القرآنية إلى تأمل الجمال الكوني، هي دعوة إلى الارتفاع بعلاقات الإنسان بالكون والبيئة، إلى مستويات عليا من السلوك والرؤية الإنسانية النبيلة، في مستويات الإصلاح والإعمار التي لا تقتصر فقط على الإصلاح المادي، بل تتعداه إلى الجمال المعنوي البادي في الكون، والذي يسعى الإنسان إلى تأمله والاحتفاظ به وصيانته، وهي دعوة إلى التفوّق في مجال العلوم الكونية، المعنية بدراسة ظواهر الكون والحياة، للإفادة منها في تطوير حياة البشر وفهم أسرار الوجود.

ويؤكد أهل العلم البُعد الجمالي في علاقة الإنسان بالبيئة، إلى الحدّ الذي يجدون فيه أن النظر البليد إلى الأرض والسماء دون إحساس بالجمال، هو نوع من المعصية وينبغي التراجع عنه. فالمتأمل في السماء وما يسبح فيها من كواكب، وما ينتشر فيها من أفلاك، يجب ألا يغفل عن زينتها التي نبّه إليها الحق تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾(الحجر:١٦).

فالجمال سمة بارزة من سمات هذا الوجود، والحس البصير المتفتح، يدرك الجمال من أول وهلة وعند أول لقاء، كما أن الجمال يعتبر من كمال هذا الكون ومن تمام هذا الوجود، وهو -كذلك- نوع من النظام والتناغم والانسجام، ذو مظاهر لا حصر لها.. فالدقة والرقة والتناسق والتوازن والترابط وغيرها من المظاهر، يشعر بها الوجدان وإن لم يستطع التعبير عنها ببيان.

وعند النظر إلى الأنعام من زاوية فوائدها المادية وقيمتها كثروة حيوانية، ندرك وجوب الحفاظ على الصورة الجمالية التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾(النحل:٥-٦)، ولما كان الجمال مقصودًا في خلق الكون، وكان البُعد الجمالي ضروريًا في علاقة الإنسان بالبيئة، فإن ما يحدث في عصرنا من أشكال التلوث البيئي، يجب النظر إليها بأنها اعتداء على توازن البيئة المحكم، وتشويه متعمّد لشكلها الجمالي الذي جعلها الله عليه، ومن ثم يكون العمل على حماية البيئة من مختلف أشكال التلوث والفساد، والإبقاء على الجمال في سطور وصفحات الكون، مطلبًا إسلاميًّا عزيزًا تستحث لأجله الهمم وتستثار الغرائز وتستنهض إليه القلوب. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

أ.د. الشاهد البوشيخي*

الأرض



وشروط وراثتها في القرآن الكريم

ينبغي على ابن آدم أن يذكر آلاء الله ﷻ ليعرفه ويحبه. ولا شك أن كل إنسان، يحب آباءه وإخوانه، لأن كثيرًا من الخير والنعم تأتيه -في الظاهر- على أيديهم. ولكن لو تأمل هذا الإنسان قليلاً لوجد أن المنعم الحقَّ واحدٌ وهو الله ﷻ، والخلْقُ إنما معابر ووسائل، يمر عبرها وعن طريقها هذا الخير من الله ﷻ. فالمنعم الوحيد الذي له الحمد في الأولى والآخرة هو الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾(النحل:٥٣)؛ نعمة السمع والبصر والكلام والمشي والعقل والهواء والضوء والماء والقراءة... فكل نعمة من النعم يتمتع بها العبد ذكَرًا كان أو أنثى، إنما هي من الله ﷻ.



التكريم الإلهي لبني الإنسان

وإن أعظم نعمة كرّم الله بها هذا الإنسان، هي أنه جعله من بني آدم، إلا أن كثيرًا من الخلائق لا تستمتع بهذا التكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠). فبنو آدم هم المستخلفون في الأرض بين جميع الكائنات وعلى جميع الكائنات، ولهم السيادة في هذا الكون: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠). فالخلافة في الأرض؛ لتعميرها، وعبادة الله فيها إنما هي لأبناء آدم، وهذا تكريم وأي تكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦).

ونعمة ثانية هي نعمة الإسلام التي رضيها الله ﷻ لعباده ومنّ عليهم بها فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة:٣). فجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وجميع التابعين لهم في الأمم الغابرة كانوا مسلمين؛ إبراهيم قال له الله تعالى: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:١٣١). الإسلام هو دين الله الوحيد على وجه الأرض خلافًا لما هو شائع ورائج، فليس فيما نزل من عند الله ﷻ أديان، ولكن يوجد دينٌ واحدٌ نصَّ عليه القرآن صراحة فقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾(آل عمران:١٩). هذا الذي كان من قبل، وهذا الذي هو كائن، وهذا الذي سيكون: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(آل عمران:٨٣).

فنعمة الإسلام، تحظى بها الصفوة المختارة من بني آدم المكرمون تكريمًا خاصًا، وهم الذين وهب الله ﷻ لهم نعمة الإسلام ومتّعهم بها، فهي نعمة عظيمة، بها يربح الإنسان حياته الحقيقية: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾(العنكبوت:٦٤). هذه الصيغة للحيوان في اللغة العربية تفيد

المبالغة، فالحياة الحقيقية التي تستحق معنى الحياة، هي تلك التي لا موت بعدها ولا نهاية لها، نعيمها مقيم وعذابها مقيم.

ونعمة ثالثة، هي نعمة أننا خير أمة أخرجت للناس، أننا أمة الرسول الخاتم ﷺ، فكل الأنبياء والرسل قبله بعثوا لأقوامهم فقط، ولكنه ﷺ بُعث للناس كافة، وقد كانت الرسل قبلُ يستحفظون أتباعهم على الدين وعلى ما نزل من كتاب الله ﷻ، أي يوكَل إليهم حفظه وصيانته، أما هذه الأمة فحفْظ الدين تكفّل به الله ﷻ. فالله تعالى هو الذي نزّل الذكر وهو الحافظ له: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩)، أمّا قبلُ فقال: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾(المائدة:٤٤).

ونعمة رابعة، هي أن هذه الأمة لها نفس وظيفة الرسل، إذ لم يحظ بهذه الوظيفة ولم تظفر بها أمة من الأمم من قبلُ. فهذه الأمة لها نفس وظيفة رسول الله ﷺ وهي "الشهادة" على الناس: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). فمَن الذي أوصل الإسلام وبلّغه إلى غير الجزيرة العربية بعد الرسول ﷺ؟ ومَن الذي يجب أن يبلغه إلى المناطق الأخرى التي لم يَبلغها بعد؟ إنما ذلك واجب أمته من بعده ﷺ. وقد أشهد ﷺ الصحابة الحاضرين ﵃ على ذلك عندما قال: "ألا هل بلّغت" قالوا: نعم، قال: "اللهم فاشهد، وليبلغ الشاهد منكم الغائب" (رواه مسلم). فكل جيل يقوم بتبليغ الأمانة للجيل الصاعد حتى تقوم الساعة، وإن هذه الأمانة من جنس وظيفة رسول الله ﷺ.

فهذه النعم وهذا التكريم وهذا التشريف وهذه الرفعة والمنزلة، وهذا الموقع لهذه الأمة، تقتضي واجبًا في الشكر، وتقتضي حبًا كبيرًا لهذا المنعم، كما تقتضي أداءً لفروض الطاعة وفروض الشكر التي تلزم لمثل هذا المنعم.

نِعمٌ عظيمة تتطلب الشكر لاستمرارها وإلا رحلت. فحال الأمة اليوم، هو كما قال رسول الله ﷺ: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها"، فسأل سائل رسول الله ﷺ: أومن قلة نحن يا رسول الله؟ قال: "بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل" (رواه أبو داود). و"الغثاء" هو ذلك العشب اليابس الذي فقد قوة الحياة فخف وزنه فجاء السيل فرفعه من الأرض وجرفه. المسلمون كثير، ولكن لمَ كان ذلك كذلك؟ لعدم الشكر لهاته النعم العظيمة التي أنعم الله بها علينا. وبم يمكن أن نتجاوز هذا الوضع المزري الذي جعل الأمة تهبط إلى هذا المستوى؟ الأصل أن المسلمين هم في موقع السيادة والريادة والقيادة، وهذا موقعهم الطبيعي، ولكن الواقع المشهود اليوم، على غير هذا الوضع؛ ذلك الوضع الذي شخّصه الرسول ﷺ: "ولينزعن الله الرهبة منكم من قلوب عدوكم وليقذفن في قلوبكم الوهن"، قيل: وما الوهن يا رسول الله، قال: "حب الدنيا وكراهية الموت" (رواه أبو داود)، على النقيض تمامًا من الثلة الصابرة المؤمنة التي عليها رُفع البنيان كله؛ جيل الصحابة ﵃ ذكورًا وإناثًا، إذ كانوا في مستوى عالٍ ورفيعٍ فسادوا وقادوا، كانوا يحبون الشهادة والتفاني في سبيل الله ﷻ، كانوا يزهدون في الدنيا ولا

الأمة الإسلامية لها نفس وظيفة رسول الله ﷺ وهي "الشهادة" على الناس. فهذه النعم وهذا التكريم وهذه والمنزلة، وهذا الموقع تقتضي واجبًا في الشكر، وتقتضي حبًّا كبيرًا لهذا المنعم، كما تقتضي أداءً لفروض الطاعة وفروض الشكر التي تلزم لمثل هذا المنعم.

يتهافتون عليها، كانوا كما وصفهم رسول الله ﷺ في شخص الأنصار حين قال لهم: "إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع"، إذا نابتْ النائبة واشتدت الصعوبة والأزمة، تكثرون وتأتون للدفاع ولنصرة الدين في وقت الشدائد، وإذا جاء وقت المغانم تقلون قليل منكم يريد حظًّا من المال.

حَمَلة الوحي

هذا الوضع صار منكوسًا معكوسًا، ولذلك انتكس الواقع أيضًا وانعكس. فمن زهد في الدنيا وضعها الله في يديه وصرّفه فيها، إذ هناك نظام خاص يسير عليه المسلمون، وهو المحاسبة للمكلّف الذي في عنقه أمانة الخلافة في الأرض وهم "الصالحون"؛ إنهم أمة محمد ﷺ، إنهم الشهداء على الناس، إنهم حملة الوحي... وغيرهم لا يعرف قرآنًا ولا حديثًا، وليس لديه الحق المحض الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، غيرهم لا يملك هاته الهبة والمنة والنعمة العظيمة؛ نعمة الهدى الرباني، نعمة الوحي وهي قوت الأرواح، والروح من أمر الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٥). والوحي القرآن والسنة الصحيحة من أمر الله أيضًا: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(الشورى:٥٢). والفرق أن الروح العادية المعروفة، يصدر منها الأمر للجسد فيصير بها حيًّا، والروح الأخرى، يأتي منها الأمر للأمة فتصير جسدًا واحدًا كما عبّر الرسول ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (رواه مسلم). نفس الوضع والخصائص، ولكن يختلف المحل. فبتفريطنا في أداء الأمانة -ونحن المكلّفون- نعاقب ولا يعاقب النصارى ولا اليهود ولا المجوس، بل نحن نعاقب بهم.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥). إنه قسم من الله ﷻ كأنه قال؛ والله لقد كتبنا وفرضنا وجعلنا في الزبور، لا يقبل نقضًا أبدًا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾(الأنعام:١١٥). كتبنا هذا في الزبور فيما زبر وكتب من الكتب قبلُ مما أنزله الله ﷻ. الزبور المعروف والمشهور، ما نزل على داود عليه السلام، ولكنه يطلق ويراد به كل كتاب كتب بوضوح، والكتاب المكتوب هو "زبور". فكتب الله في الزبور من بعد الذكر الذي كان قبل الزبور، أن الأرض الذي يرثها دائمًا، هم الصالحون الذين يعبدون الله والذين هم صالحون، أيْ تنتقل إليهم السيادة عليها بأيسر كلفة، لأن "ورث" في اللغة العربية تفيد انتقال الملْك إلى المالك دون كلفة منه. لذلك يطلق على ما ينتقل من ملْك الأبوين وملْك العائلة بعد الوفاة إلى الباقين، أنه "إرث" و"ميراث"، لأنه ينتقل بدون كلفة، وذلك تيسير من الله ﷻ وتسهيل، لأن الانتقال قد يكون نتيجة مجاهدة شاقة جدًّا، وقد يكون بتيسيرٍ من الله، لا يساوي في الظاهر الكلفة التي بذلت فيه. وذلك ما حدث للمسلمين قبلُ، ويمكن أن يحدث في كل آن. والسر جليٌّ واضحٌ؛ هو أن الله ﷻ أقل ما يجزي على العمل الصالح عشرة أضعاف، وهذه ليست نسبة مئوية (١٠٪)، بل عشرة أضعاف: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(الأنعام:١٦٠)، هذا أقل أجر عند الله تعالى، إلى سبعمائة ضعف: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(البقرة:٢٦١).

ومن تلك المضاعفات، مضاعفات الجهاد. فاليوم الواحد عند الله في الجهاد بألف يوم، المضاعفات بالآلاف، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "ونصرت بالرعب مسيرة شهر" (رواه مسلم). من خصائصه ﷺ وخصائص أمته -إن اتبعتْه- أن يبارك الله في عمل الصالحين. فما قيمة تلك القلة القليلة من المسلمين، وسط الجزيرة العربية في مكة والمدينة بالنسبة للجيش الجرار الذي كان للفرس وللأكاسرة؟ فإنها لا شيء في الحساب البشري، ولكنها عناية الله ﷻ وولايته: "من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب" (رواه البخاري). إن الله ﷻ متكفل بنصر المؤمنين: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الروم:٤٧) بشرط أن يكونوا مؤمنين، والإشكال في تحقيق الشروط لا في تحقق المشروط. لا نلتفت إلى النتيجة إن حققنا الشرط، لأن الله ﷻ متكفل بها، وهي وعدٌ منه ولن يخلف الله وعده،

إنمـا الإشـكال يقع في الشـروط التي ينبغـي أن نحققها، وأن نتمكن منها لنستحق بها نصر الله ﷻ.

الأرض في القرآن الكريم

الأرض فـي القرآن الكريم وردت بمعان ثلاثة: وردت بمعنى "فلسـطين" وهـي المشـار إليهـا فـي قولـه تعالـى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْـتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْـنَى عَلَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾(الأعراف:١٣٧)، هي الأرض المباركة في القرآن الكريم المشار إليها في العديد من الآيات، وسميت بالأرض، وأورثها إذ ذاك المسـلمون من بني إسـرائيل الذين آمنوا بموسى ﵇ في تلك اللحظة.

ومـن معانـي الأرض في القـرآن الكريم، الأرض نفسـها التي نعرف والتي تقابل السـماوات: ﴿وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(الحديـد:١٠). الله ﷻ هـو الـذي سـيرث السـماوات بكاملهـا ويـرث هذه الأرض أيضًـا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَـرِثُ الأَرْضَ وَمَـنْ عَلَيْهَـا وَإِلَيْنَـا يُرْجَعُونَ﴾(مريـم:٤٠). الـوارث إذن هو الله، والكل سيرثه الله ﷻ.

ولـلأرض معنـى ثالث هـو "الجنـة"، وذلك ما تشـير إليه الآية الكريمة، الداخلـون إلى الجنة، المنعم عليهم، الطيبون: ﴿وَقَالُـوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّـذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَـا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَـاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(الزمر:٧٤)، فالأرض ها هنا هي "الجنة".

﴿وَلَقَـدْ كَتَبْنَـا فِي الزَّبُورِ مِـنْ بَعْدِ الذِّكْـرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَـادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥)، أي جنـس الأرض يرثهـا عبـادي الصالحـون. التطبيقات في الحاضر سـائرة في حدود لـم تتم بعـد لوراثة الأرض الكاملة، ولكن حديثًا لرسـول الله ﷺ يصـرّح صراحـة بـأن مُلك أمة محمد ﷺ سـيبلغ يومًا دون تحديـد للزمـان أو المـكان، أي سـيبلغ جميع أقاصـي الكرة الأرضية. يقول رسول الله ﷺ: "إن الله زوى لي الأرض فأراني مشارقها ومغاربها وسيبلغ مُلك أمتي ما زُوي لي منها" (حديث صحيح). وهذا ينسـجم كل الانسجام مع الآيات الصريحة، في أن هذا الدين سيظهر وينتصر على كل دين: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُـولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(الفتح:٢٨)، وهـذا الظهور على الدين كله ما تم في حياته ﷺ. يقول بعض المفسـرين بأنه تم الظهور بالحجة، وغلبت حجة الإسلام في شـخص رسول الله ﷺ وشخص الصحابة ﷺ من بعده، غلبت حجـة اليهـود الذيـن كانـوا فـي الجزيرة العربية، وغلبت حجة النصـارى الذيـن كانـوا فـي الجزيرة العربية، ولكن الدين مـن حيث هـو ديـن، وبقطع النظـر عن أنه دين الله أو ليس ديـن الله: ﴿لَكُـمْ دِينُكُـمْ وَلِـيَ دِينِ﴾(الكافرون:٦)، أي كل مَـن عبد غير الله فقد دان بدين ليس هو دين الله.

فظهور هذا الدين على جنس الدين كيفما كان، لم يتم على عهد رسول الله ﷺ، ولذلك ذهب بعض العلماء -في القديم وفي الحديث- إلى أن هذا الظهور مستمر عبر التاريخ وسيكمل في التاريخ.

فـي حديـث حذيفة بن اليمـان ﷺ المشـهور: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسـول الله، هل بعد هذا الخير من شـر، قـال: "نعـم"، قلت وهل بعد ذلك الشـر من خيـر، قال: "نعم وفيـه دخـن" قلت مـا دخنه؟ قـال: "أناس يهـدون بغير هديي تعـرف منهم وتنكر" (رواه البخاري)، أي أن خيرًا عظيمًا سـيأتي، ولكنـه لن يكـون كالخير الأول بالضبط؛ صافيًـا نقيًّا كما كان أيام رسـول الله ﷺ، لكنه خير شـهد له رسول الله ﷺ بأنه خير، وإن كانت تشوبه شوائب لكنها لا تخرجه عن أن يوصف بأنه خير من جنس الخير الأول، إلا أنه شـيب بشـوائب لا تضره الضرر التام.

الانبعاث من جديد

ومـا بـدأ يلـوح في الأفـق الآن من بـوادر الاسـتئناف، بوادر العـودة، بناءً على حديث رسـول الله ﷺ: "بدأ الإسـلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء" (رواه مسلم). بدأ الإسلام أول مرة غريبًا، الناس من حول المسلمين هم على خلاف ما عليه المسلمون وينكرونهم ويرفضونهم، وسيضعف الإسلام ويضعـف، إلى أن يصيـر الأمر إلى الحال الذي يعود به الأمر من جديد إلى غربة كالغربة الأولى. وفي تلك الغربة يستأنف الإسـلام سـيره من جديد، أي سيرجع، ذهب وسيعود، وهاته الغربـة موجـودة، تتفـاوت من بيئـة إلى بيئة. وهـؤلاء الغرباء كمـا في حديث هرقل المشـهور مع أبي سـفيان: أيزيدون أم ينقصـون؟ قـال يزيدون. فالأمـر يزداد في العالـم، ومن أبصر

الآن المستقبل انطلاقًا من الحاضر والماضي القريب، استطاع أن يرى -رأي العين- لمن الخلافة بعد، ولمن السيادة بعد في هذه الأرض.

وقد أكدت إحصائيات كثيرة، ودراسات مستقبلية قامت بها الجمعية العالمية للدراسات المستقبلية، على أن القرن القادم هو قرن الإسلام. سيكثر إنسانه وسيكثر أتباعه وسيمكن لهم، والسيادة الحقيقية ستكون لهم، وذلك بناء على دراسات ميدانية للماضي القريب والحاضر، انطلاقًا من واقع الثروة، وواقع الإنسان، وواقع اتجاه التاريخ، وانطلاقًا من صلابة الأساس الذي تتكون منه الشخصية القوية الصلبة. فأقوى تحدٍّ موجود الآن لغير الإسلام، هو الإسلام؛ الإسلام الذي عبر عنه "شنبغلر" أحد المستشرقين الألمان في كتابه الذي ترجم بعنوان "الإسلام قوة الغد العالمية" بأنه "العملاق النائم" أو "المارد النائم". إنهم يفعلون ذلك ليس حبًّا في الإسلام، وإنما لتخويف أقوامهم من خطورة هذا الكائن الذي يتهدد كيانهم في نظرهم. هناك فرق بين القوة الضارية الآن، المهيمنة الطاغية والتي هي وإن بدا أنها في العنفوان، هناك فرق بينها وبين تلك النباتات الضعيفة التي تنبت في الأرض، والتي إذا نظرنا إليها في الخارج -في فصل الربيع- نشعر بعد شهور بتبدّل الأرض، ويصير لون الأرض هو لون تلك النباتات التي كانت ضعيفة، لأن الأرض تتبدّل من تحت لا من فوق. والكائنات الموجودة اليوم في مختلف الأمم، ولا سيما في هاته المهيمنة النابتة الجديدة، ليست لها تلك الصلابة التي للنابتة في ديار الإسلام.

وحتى على المستوى التكنولوجي، المسلمون اليوم بدأوا يطلون على هذا العالم، فدول إسلامية عديدة اليوم في ميدان الصناعة تتحدى بقوة الدول المتقدمة في العالم. فآسيا عمومًا حبلى بجنين الإسلام. وفي مناطق عديدة تولد مواليد جديدة لهذا الإسلام، تنبئ عن المستقبل وعن ملامحه وعن قسماته، ولكن كل ذلك مشروط بشرط الصلاح. فالتمكين في الأرض والاستخلاف وُعِد به الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(النور:٥٥)، والصالحات على رتب أولها الفرائض، ويوضحها الحديث القدسي الصحيح المشهور: "من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه". الفروض العينية أولا، ثم فروض الكفاية، وكل ذلك واجب.

فالإسلام بأركانه، والإسلام بفرائضه، هو أحب ما يحب الله ﷻ، وهو أول الدرجات في سلّم الصعود في معراج الصلاح. ثم بعد ذلك يقول الحديث: "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه". إنها درجة عليا يصل إليها نفر من الأمة، ولكن الرحمة في هذه الدنيا كالنقمة تعم، قد يُرحم الإنسان غير الصالح بوجود الصالحين إلى جنبه، كما في الحديث المشهور الذي قال الله ﷻ فيه للملائكة: "أشهدكم أنني قد غفرت لهم، فقالوا له: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم" (رواه البخاري). فالرحمة تنزل على الجميع وكذلك المصيبة والنقمة: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾(الأنفال:٢٥). وذلك وضّحه رسول الله ﷺ في حديث آخر: "مثَل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فبعضهم كان حضه في الأعلى وبعضهم كان حضه في الأسفل" (رواه البخاري). فالذين هم في الأسفل اجتهدوا اجتهادًا لو أننا خرقنا هذه السفينة فنحصل على الماء فلا نؤذي مَن فوقنا، وإذا أرادوا الماء يصعدون إلى فوق: يفسد بنية صالحة؛ هذا قال فيه رسول الله ﷺ: "فلو أخذوا على يده -أي الخارق- لنجا ونجوا، ولو تركوه لهلك وهلكوا" (رواه البخاري). وكل منتهك لحرمة من حرمات الله ﷻ خارق لسفينة الإسلام، فكم هي الخرق التي في هذه السفينة؟ في أي مستوى نحن من عمق البحر؟

فيجب التوبة النصوح كما قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾(التحريم:٨). والتوبة النصوح، هي التي يكون فيها إصرار على عدم الرجوع إلى الذنب، وإن رجع العبد بعد، يغفر له ﷻ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(النساء:١١٠).

إننا إذن، ينبغي أن نفقه الدين وأن نفقه الواقع وأن نفقه التاريخ وتوجهه المستقبلي، لنعرف من نحن وما نحن، ولنحسن الاستعداد للغد، سواء الغد على الأرض -الكرة الأرضية- أو الغد على أرض الجنة. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

أديب إبراهيم الدباغ*

إذا ارتقى العلم، اتسعَ وامتدَّ وتحول إلى معرفة.. والمعرفة علم شامل وفكر محيط، والفكر إذا أحاط ضَمَّ إليه الروح. فكل علم لا ينتهي في خاتمة المطاف إلى الروح، فإنه لا يزيد عن كونه عبثًا يتعب صاحبه ويزيد في أعبائه.

* * *

حوار بين معلمة وتلميذة

قالت التلميذة لمعلّمتها وهي تحاورها: هلاَّ حدثتني يا معلمتي عن مبعث هذه الحمرة الخفيفة التي تتسلّل إلى وَجَنَاتنا -نحن العذارى- على عجل إذا ما التقينا الرجال الغرباء حيثما تفرض علينا مشاغل الحياة هذا اللقاء؟!

قالت المعلمة: اعلمي يا ابنتي أنّ هذه "الحمرة" التي تتساءلين عنها، دليل على الصحة الفطرية والنفسية عندكنّ، ودليل على سلامة جنسكنّ الأُنثوي من أوضار العصر، وآية على الطهر والنقاء عندكنّ.

فـ"الحياء" هو مبعث هذه "الحمرة"، وهو نازع فطري يولد مع الأنثى حين تولد وينمو مع نموها، ولكن "التقوى" تزيده وتنميه، بينما السفاهة والرعونة تضعفه وتُقْمِيْه.

وهو -بعد ذلك- إكليل عِفّة يَزينُ الفتاة ويكسوها هالة من الجلالة والمهابة، لا يسع الرجل إزاءها إلا إكبارها وتقديرها، كما أنه -أي الحياء- حصانة ذاتية تحصن الفتاة وتحول بينها والانسياق دون تحفظ نحو كثير من السفاهة والطيش.

قالت التلميذة: ولكن -يا معلمتي العزيزة- أليست "حمرة الحياء" هذه أو "الخجل" كما يحلو للآخرين أن يسموها بِمَنقَصَةٍ ينبغي -نحن الفتيات- أن نخلص منها وندعها جانبًا، لأنها دليل ضعف نفسي وبقايا شعور بالدونية إزاء الرجل وقوته وعنجهيته. فالمرأة اليوم، أكثر اعتزازًا بوجودها، وأكثر ثقة بشخصيتها، وعليها أن تقتحم عالَم الرجل دون خوف كما يريد أنصارها من الرجال والنساء أن تكون؟

قالت المعلمة: اعلمي -يا ابنتي- أنّ المرأة لا تكون سوية

الكيان، حتى يتناغم ويتكامل فيها العقل والشعور والفطرة، وإغفال أي جانبٍ من هذه الجوانب، ينجم عنه خلل معيب في شخصية المرأة.

فالحياء فطري في المرأة، وهو ذو جذور تمتدّ في كل وجودها الأنثوي، وقد يتوارى أحيانًا ويغيب، ولكنه يظل موجودًا. وهو غلاّبٌ لا يغلب، وركين لا يستأصل، وهو "روحانية المرأة" التي تسمو بها فوق نوازع الاسفاف حتى حين تنعدم عندها كل الروحانيات، وهو دينها الذي يمنعها من السقوط في جهنم الرذيلة حتى ولو كانت من غير دين، وهو -بعد ذلك- شعور مُرهفٌ يرقى بالمرأة إلى قدسية أنثوية يتردّد الرجل كثيرًا قبل أن يَمَسّها أو يخدشها. والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة بأجمل بيان في قصة الفتاتَين اللتين سقى لهما موسى عليه السلام حيث يقول: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾(القصص:٢٥).

غير أن الأزمنة الحديثة، استنبتت في رأس المرأة أفكارًا جديدة على النقيض من نوازعها الفطرية، فملأ الكتّاب خيالها ووجدانها بأفكار متوقحة سرعان ما سرت من الفكر والخيال إلى كيان المرأة كله، فتَوقّح الجسد تبعًا لتوقّح الفكر والخيال، واختفى "الحياء" أو كاد، واختفت تلك الحمرة المحبّبة أو كادت عند كثير من شرائح المجتمع النسوي، وهذا ما كان يسعى أنصار المرأة من الرجال والنساء إلى جرّ المرأة إليه... ومع ذلك، فالحياء باقٍ في طوايا المرأة مهما حاولت أن تتظاهر بعكس ذلك، ويمكن أن يغشى مظهرها في لحظة من لحظات صحوتها الأنثوية الفطرية.

قالت التلميذة: على رِسْلكِ يا سيدتي، إن فينا نحن البشر -رجالاً ونساءً- نازعًا تمرديًّا ينزع بنا إلى كسر قيودنا وأغلالنا، والتحرر من كل قيد يقيد حركتنا، ويمنعنا من الاستمتاع بلذات التحرر والانطلاق... وهنا أريد أن أسألك: ألا تعتقدين -يا معلمتي ومربيتي- أنّ "الحياء" قيد يقيدنا -نحن النساء- ويضع بيننا وبين الرجل حواجز نفسية تمنعنا من اقتحام عالَم الرجولية فنظل في معزل عنه، لا هو يفهمنا ولا نحن نفهمه؟

الحياء فطري في المرأة، وهو "روحانية المرأة" التي تسمو بها فوق نوازع الاسفاف حتى حين تنعدم عندها كل الروحانيات، وهو دينها الذي يمنعها من السقوط في جهنم الرذيلة حتى ولو كانت من غير دين.

قالت المعلمة: لقد خُلق الإنسان متمردًا مسألةٌ لا أخالفك فيها، ومن أجل ذلك احتاج إلى الحكمة والدين ليحدّ من انفلاتاته وتمرداته وشططه والذهاب بعيدًا في انطلاقاته إلى حد التيه في عالم "اللاّجدوى". إن ما علينا أن نعالجه هنا، ليس الذكاء البشري الذي يحتال للانطلاق من قيوده، بل علينا أن نعالج قضية أجلّ وأعظم، وهي قضية "الإنسان" عمومًا والمرأة بشكل أخصّ، ضمن فكر شمولي، له امتداداته "الماورائية" التي نشعر بومضاتها في خفايا الروح والوجدان. فعلى المرأة أن تدرك أن "الحياء" ليس بأرضي النشأة، بل هو لمسة إلهية لِطينة المرأة في حين تشكلها الأول، وما من أحد يستطيع أن يمحو هذه اللمسة المباركة مهما بذل من جهد. فالمرأة -هذا المخلوق الحي بفطرته- لن تستطيع التمرّد على فطرتها مهما اصطنعت من مبررات. انظري إلى ما يقوله "عباس محمود العقاد"، هذا المفكر الخبير بطبيعة المرأة في هذا الصدد، إنه يقول: "كذلك نمقتُ الحرية التي تجني على "حياء" المرأة، لأننا لا نفهم معنى الأنوثة بغير معنى "الحياء"، فكل أنثى مستعصمة به حتى في النبات وحتى في الحشرات وحتى في الحيوان، وكل أنثى تقوم في حرم من الأنوثة، لا تعوضها منه الحرية ولا السرور، فالرجل لا تقتل رجولته الحرية التي يسعى بها إلى المرأة، ولكن المرأة تقتل أُنوثتها وجمالها كل حرية تجني بها على طبيعة الخفر والحياء".

قالت التلميذة: معلمتي العزيزة... أفدتُ منك أيّما فائدة، وأنرتِ كثيرًا من غوامض فكري... فالشكر لك... ومع ذلك فلا زال شيء ما من هذا الأمر، يلح على نفسي ويتلجلج في خاطري... وآمل أن ألتقيكِ -معلمتي- في حوارات أخرى للمزيد من الإيضاح. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

جولي آن كانينغهام*



موسيقى الكائنات

"الموسيقى قانون أخلاقي.. إنها تمنح الكون روحًا، والعقل أجنحة، والحزن جمالًا، والمخيلة قدرة على التحليق.. إنها تمنح الحياة بهجة وسرورًا، بل إنها لب النظام الذي يقود إلى كل ما هو خير وعدل وجميل" (أفلاطون).

إن الموسيقى التي تحيطنا من كل جانب، مسجَّلة كانت أم طبيعية أم صامتة هادئة، موجودة في الحقيقة. وقد استنبط القدماء اسم "الموسيقى الكونية" لاعتقادهم بأن النجوم والكواكب في السماء تغنّي. وقد نرى الإنجيل يتحدث عن السماوات التي تسبّح الله فيقول: "سبّحيه أيتها الشمس والقمر، سبّحيه يا جميع كواكب النور، سبّحيه يا سماء السماوات، ويا أيتها المياه التي فوق السماوات" (المزامير ١٤٨: ٣-٤)، ويقول القرآن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(الجمعة:١).

وللموسيقى تأثيرات شتى؛ تشفي الروح تارة وتسقم الجسم تارة أخرى، تسمو بالخيال تارة وتهبط به تارة أخرى، تُدمِع العين تارة وتشرح الصدر تارة أخرى... إنما كل ذلك يعتمد على نوع الموسيقى التي نسمعها. وليست الموسيقى إلا إكسيرًا للحياة وغذاء شافيًا لها.

وقد تطرب الروح والحياة بصدى النغمات، وجمالية الإيقاعات التي تتردد في هذا الكون، وفي حال انضمام



هـذه النغمـات بالألحان الموسـيقية بطريقة مـن الطرق، كان لها الأثر الكبير على العقل والجسـم والوجدان. وهل الجسم إلا أداة يشـبه آلـة العزف فينهل من معين الموسـيقى فيتغذى بنغماتهـا المثيـرة الرقيقـة ويرتـوي... وهـل القلـب إلا وعاء يختزن في أعماقه النغمات الساحرة الأخاذة!..

الموسيقى لغة كونية

الموسـيقى لغـة كونيـة تخاطـب كل المخلوقـات، حتـى إن الأصمّ يشـعر بالموسـيقى ويحس بها من خـلال الاهتزازات أو الذبذبـات التي تنبعث منها. ثم إن الموسـيقى، لغة تخترق حواجز أصوات اللغات البشـرية، وتكشف عن كل التفاصيل السرية في الكون والكائنات.

بالإضافـة إلـى ذلـك، فـإن النباتـات والحيوانـات أيضًا، تسـتجيب لنداء الموسـيقى. وقد بيّنت الدراسات العلمية، أن هنـاك تأثيرات ملحوظـة للأصوات الموسـيقية ونغماتها، في نمو النباتات بمختلف أنواعها وأجناسها، كما بيّنت الدراسات العلميـة أيضًا، أن البقرة تزداد حليبًا إبان سـماعها الموسـيقى الهادئة الكلاسيكية.

فهذا التأثير الذي أحدثته الموسـيقى، أدى إلى استخدامها عنـد القدمـاء من الإغريق، والهند، وبلاد مـا بين النهرين، في شفاء الأرواح والأبدان العليلة.

فقدمـاء الإغريـق -مثـلاً- اسـتخدموا الموسـيقى لتهيئـة أجواء من الطمأنينة والراحة النفسية التي تساعد -باعتقادهم- على شـفاء المرضـى. وقد رأى "ديموقريطـس" أن أنواعًا من الأمـراض يمكن أن تعالَج بصوت المزمار، وكذلك "أبقراط" اسـتخدم الموسيقى للشفاء من الأمراض. كما أدرك أفلاطون وسقراط وفيثاغورث تأثير الموسيقى في الشفاء من الأمراض والتخلص منها، بالإضافة إلى نصيحة هوميروس بالموسـيقى من أجل التخلص من العواطف السلبية والحالات العصبية.

الموسيقى شافية للروح

لقد سـميت الموسـيقى في مصـر -من قبَل الكهنـة الأطباء- بـ"شـافية الـروح"، وتـم اسـتعمالها فـي معالجـة الأمـراض الجسمية والاضطرابات العصبية وتخفيف آلام المخاض. في حين نرى أوراق البردي (١٥٥٠ قبل الميلاد) -وهي من أقدم الوثائـق الطبية التي تم العثور عليها- كتب عليها العزائم التي كان يهتف بها لشفاء المريض.

وفي الهند قديمًا، رأى مؤرخو علم الموسيقى، أن الصحة هي التدفق المتوازن للطاقة من دورة العقل والجسم. وعندما يختـل تدفق الطاقة أو يعاق، يصاب الجسـم بالمرض، لذلك قامـوا باسـتخدام الصـوت كعـلاج لإعـادة التناغـم والتوازن للجسم والعقل.

إن جوهر العلاج بالموسيقى والأصوات عند الهنديين، كان يقوم على ترتيب النغمات المختلفة حسب الأوقات المختلفة في الأيام والليالي والفصول المختلفة. وفي سبيل إعادة نظام الجسم، كان على المعالجين معرفة تأثير النغمات على كيمياء الجسـم. وبتعبيـر آخـر، فإن انتقـاء اللحن -المسـمى عندهم بـ"الرجـا"- كان يعتمد على المرض الذي يُطلب الشـفاء منه.

هـذا وقد تطور في العهد العباسـي (٧٥٠-١٢٥٧) العديد مـن فنـون العلاج، فأقيمـت المشـافي والمـدارس الطبية في أرجـاء العالـم الإسـلامي، بالاعتمـاد علـى الطـب العربـي الإغريقي، وتم تطبيق طرق عديدة في العلاج منها الموسيقى، والروائـح الطيبـة، وصـوت خريـر الميـاه، وقراءة القـرآن... وقد تم اسـتخدام قـراءة القرآن في شـفاء المريض منذ عصر الرسـول محمد ﷺ. وقد اسـتخدم أطباء هذا العهد الموسيقى -خصوصًـا- في معالجة الأمـراض العقلية والكآبة النفسـية.

مقاومة المرض بواسطة بيئة مليئة بالبهجة والسرور، وبطريق عزفِ أفضل أنواع الموسيقى، وإحاطته بمن يحب من الناس".

وأما في العهد العثماني (١٢٩٩-١٩٢٣) فقد استعمل "موسى بن هامون" الذي كان طبيب القصر في عهد السلطان سليمان القانوني (١٤٩١-١٥٦٦)، العلاج بالموسيقى في آلام الأسنان والاضطرابات العقلية الولادية. وقد ذكر السلطان السلجوقي "غياث الدين" في إحدى كتاباته، بأن علماء الهند نصحوا الأطباء بدراسة الألحان والموسيقى، وأن هذا العلم ضروري للأطباء، مثله تمامًا مثل التشخيص بالاعتماد على خفايا النبض، ومن ثم يمكن للمريض أن يشفى من مرضه إبان سماعه إلى بعض ألحان الموسيقى.

الموسيقى عبر الزمن

ومنذ قرون طويلة، وفي ثقافات مختلفة وأديان متنوعة، تم الجمع بين الموسيقى والرقص في عبادة الله. ووفقًا للعهد القديم فإن النبي داود ﷺ ملك بني إسرائيل، رقص أمام الربّ تعبّدًا وإجلالاً له (٢ صموئيل ٦:١٤). وكذلك تقول الروايات الإسلامية أن النبي داود ﷺ عبد الله، وبلغتْ تسبيحاته من القوة ما بلغتْ؛ إذ سبَّحتْ معه الجبالُ والنباتات والحيوانات وتجاوبت مع ندائه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾(الأنبياء:٧٩).

وعليه، فقد أدرك المتصوفة قوة الموسيقى فاستعملوها في طقوسهم الدينية، وكذلك في الاضطرابات العقلية والعصبية. واعتقدوا أن الأدوات الموسيقية التي استعملوها، لها خصائص علاجية تختلف عن الأدوات الأخرى. فالناي والمزمار ومزمار القصب من الآلات الموسيقية المهمة، وقد عثر على الناي في حفريات "أور" ولوحات القبور، كما كان يعتقَد أنه يزيل الهموم ويجلب أنماط النوم الصحي، وكانوا يزعمون أن العود يفيد في تسكين آلام الرأس والسوداوية. وكذلك تم استخدام طبل ناغارا، في التخفيف من السوداوية ومن الإنهاك الجسدي والعقلي.

وقد اعتبرت القيثارة من أقدم الآلات الموسيقية في العالم، حيث اقترنت لمدة طويلة بالملائكة والجنة، وكانت رمزًا للانتعاش والراحة، بصوتها الأثيري السماوي، الأمر الذي جعلها تستخدَم من قبَل حضارات عديدة في أعمال العلاج. وكان فيثاغورث يرى أن أوتار القيثارة رمز لنظام الأعصاب. وتروي الروايات القديمة بأن النبي داود، كان



العلاج بالموسيقى

وفي هذه الفترة نبغ الأطباء في استنباط طرائق وأساليب عديدة في العلاج، من ذلك استخدامهم الموسيقى في علاج المرضى النفسيين أو المصابين بخلل عقلي. فأبو بكر الرازي (٨٣٤-٩٣٢) اهتم بمرضى الكآبة ولا سيما الذين عانوا من الحزن، حيث شملت جلّ أعماله الطبية، سماع الموسيقى التي أنشدت من الأصوات الجميلة. وأبو نصر الفارابي (٨٧٠-٩٥٠) الذي منحه الله عددًا من المواهب، اخترع عددًا من الآلات الموسيقية وعزف عليها بمهارة عالية، كما أنه أوجد نظام النغم العربي المستعمل إلى يومنا هذا، فقال الفارابي في كتابه "الموسيقى" مبديًا معايير الجمال في الموسيقى: "الموسيقى تقوي المزاج، وتهذّب الأخلاق، وتثبت العاطفة، وتنمي الروح. إنها مفيدة للصحة الجسمية، وإذا مرضت الروح مرض الجسم أيضًا. كما أن الموسيقى التي تشفي الروح، تعيد إلى الجسم صحته وحيويته من جديد". وابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) الذي عُرف في الغرب باسم "أفي سينا" قد تأثر كثيرًا بالفارابي وقال: "إن أهم أنواع المعالجة المؤثرة، هي تعزيز الطاقة العقلية والروحية للمريض، ليقوى على

صغيرًا يرعى الغنم، فقام بالعزف على القيثارة ليخفف الآلام الذهنية للملك شاؤول إذ ابتلي بالأرواح الشريرة.(١ صموئيل ١٦:١٤-١٧، ٢١-٢٣).

هذا وقد استخدم الأوربيون الموسيقى في العلاج قبل عصر التنوير أو عصر العقلنة. إذ كان دير "كوني" العظيم في جنوب فرنسا، مركزًا لعلاج المرضى وإراحة الميت بالأناشيد والتراتيل والعزف على القيثارة. وفي إزالة الكآبة كتب "روبرت بيرتون" بأن الموسيقى هي قوة عظيمة تطرد الأمراض، وأنها علاج قوي تدفع اليأس والكآبة، بل إنها تطرد الشيطان نفسه.

الابتعاد عن الموسيقى

عندما تقدم العلم في أوربا، واعتُمد فيه على العقل والعقلنة، استبعدت فكرة استعمال الموسيقى كدواء. وما الطريقة التحليلية المتبعة اليوم في الطب، إلا إشارة إلى ندرة الأطباء الذين يستعملون الموسيقى أو يقبلون عليها كعلاج للمرضى، وهذا أدى مع مرور الأيام، إلى التباعد في العلاقة بين الروح والجسد، وبالتالي أضحت الموسيقى شكلاً من أشكال الفن وأداة للتسلية والترفيه. ومع مرور الأيام، نسي الغرب أثر الموسيقى في العلاج النفسي، ولم تعاود الظهور إلا بعد الحرب العالمية الأولى.

ونحن اليوم، نكتشف وندرك ما عرفه الفارابي قبل ما يزيد عن ألف سنة: "إذا مرضت الروح مرض الجسد أيضًا". وقد ظهر العلاج بالموسيقى بعد الحرب العالمية الأولى والثانية في أمريكا. فالموسيقيون المحليون -سواء الهواة منهم أم المتخصصون- ذهبوا إلى مشافي المحاربين القدامى بغية أن يعزفوا الموسيقى ويكونوا سببًا في عافية أبدان الجنود وأرواحهم. وعندما بدأ الدكتور "محمد أوز" -وهو طبيب تركي متخصص في جراحة القلب والصدر ومشهور في العالم- بتشغيل أشرطة الموسيقى الصوفية، قبل إجراء العملية الجراحية وفي أثنائها وحتى بعدها، وجد المرضى -نتيجة لسماعهم الموسيقى- أقل اكتئابًا وإرهاقًا من المرضى الآخرين، وأنهم تماثلوا للشفاء بشكل سريع وملحوظ، وأنهم خرجوا من المستشفى قبل غيرهم. ومن ثم كتب الدكتور أوز في معالجة القلب، وضمّن ذلك نتائج استخدام المقامات الموسيقية التركية أثناء معالجة مرضى السبات في عيادته، حيث استيقظ ٢٩٪ من المرضى من سباتهم، بعد سماعهم المقامات الموسيقية هذه.

الموسيقى دافع للإبداع

أفادت الدراسات أن الطلاب الذين يعزفون على شكل أوركسترا في مدارسهم، حصلوا على علامات ومعدلات عالية جدًا. كما أن تعلّم العزف على آلة موسيقية، تطوِّر من إقامة الجسر في الجسم الثفني بين الجزء اليساري واليميني من الدماغ.

ويذكر "كامبيل" أن الجسم الثفني للموسيقيين أسمك، ومتطور أكثر عن الناس الآخرين. وهذا يعزز من الفكرة القائلة بأن الموسيقى توسع من المسارات العصبية وتحفز على التعلّم والإبداع. وكما تبيّن دراسة أخرى، أن قادة العازفين والعرفاء في الفرقة الموسيقية من الطلاب، حصلوا في القراءة على نقاط أعلى من الطلاب الآخرين في قسم اللغة الإنكليزية، والعلوم الطبيعية، والكيمياء، والرياضيات.

وبالتالي عندما تكون أصوات الآلات في تنافر ضمن الأوركسترا، فإنها تسبب تنافرًا في أداء الجسم، وأفكارًا سلبية في مجريات العقل، الأمر الذي يؤدي بالمرء إلى الاعتلال في الصحة الجسمية والعقلية. وينبغي أن تُجرى المزيد من الدراسات، لاكتشاف المحفزات الكيميائية الخفية التي تحرر العواطف والأحاسيس المدفونة المكتومة التي تؤدي إلى الإصابة بالمرض.

إن الموسيقى في جوهرها شيء غير ملموس، لكنها تقاس بالاهتزازات والأمواج الصوتية والذبذبات، ولكن هذه العوامل أيضًا، لا تكفي لتفسير الموسيقى وكيفية تأثيرها فينا. ولعل الأفضل أن يقال: "إن الموسيقى هبة من الله لنا، تخفف من وطأة معاناتنا في هذا العالم، وتذكّرنا بفعل الخير، وتذكّرنا برحمة الله الواسعة، بالإضافة إلى أنها تساعدنا على أن نتصل بالله في مستويات أعمق، بل إنها السبيل الموصل إلى الجنة في لمحة بصر. ■

(*) كاتبة وعازفة / الولايات المتحدة الأمريكية. الترجمة عن الإنكليزية: د. حمزة حمزة.

دراسات إسلامية

أ.د. أحمد عبادي*



الجمع بين القراءتين

تجليًا من تجليات التكامل المعرفي في القرآن المجيد

إن الجمع بين القراءتين تجلٍّ من تجليات التكامل المعرفي في القرآن المجيد، فلا يخفى على قارئ ولا قارئة لكتاب الله ﷻ، أن أول ما أشرق من أنوار هذا الوحي الخاتم على دنيا الإنسان هو قوله سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥).

نرى إذن، ومنذ هذا الإشراق الأول أن ثمة أمرًا بقراءتين:

الأولى: قراءة في الخلق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، ولا شك أن هذه القراءة في الخلق لها أبجدها ولها آلياتها ولها خطواتها ولها مؤشرات تقويمها. والقراءة الثانية التي تبرز: هي القراءة في الكتاب المسطور ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

إن فعل القراءة في عالم الإنسان وفي دنياه أصبح -بحمد الله- ممكنًا بإقدار الله ﷻ لهذا الإنسان على هذه القراءة؛ وتجلّي هذا الإقدار في الجانب المنظور كان من خلال الأسماء وتعليمها ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١). ورضي الله عن سيدنا عبد الله بن عباس حين قال: "علّمه حتى القصعة والقُصيعة"، والعلماء -وعلى رأسهم بهذا الصدد أبو الفتح ابن جني- على أنَّ المقصود بـ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ هو إقداره على تسمية الأشياء، وهذا الإقدار هو الذي يمكّن الإنسان من تفصيل وتفكيك المجملات؛ بحيث يستطيع أن يأتي إلى مجمل ويفكّكه، وكلُّ جزء ينتج عنده وينجم من هذا التفكيك يكون قادرًا على إعطائه اسمًا، فيضبطه في مكانه من خلال هذا الاسم، وهكذا يستمرّ في التفكيك، ويكون بعد ذلك من خلال هذه الصور والمعالم الأسمائية قادرًا على التركيب، أي إنها قراءة في اتجاهين: تفكيكًا وتركيبًا، قراءة قد أصبحت ممكنةً بسبب هذه القدرة على التسمية.

أما في الجانب الذي هو جانب الكتاب المسطور، فنجد الكلمات، وذلك في قول الله ﷻ: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾(البقرة:٣٧). هناك إذن، الأسماء في الكتاب المنظور، وهناك الكلمات في الكتاب المسطور، وهناك -كذلك- المواءمة بين الإنسان وبين الكتابين، وهي مواءمة كانت ممكنة بسبب الدمغة الأولى والفطرة الأولى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الروم:٣٠).

المواءمة البنائية

وتقوم هذه المواءمة الممكّنة من القراءتين في الجانب المنظور "الكوني"، وفي الجانب المسطور "جانب الوحي" على مجموعة من الأسس أبرزها البنائية. ففي الجانب المنظور "الجانب الكوني"، نجد أن هذا الكون بناء عضوي ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(الذاريات:٤٧)، ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾(النازعات:٢٧-٢٨)، وهذا البناء له مقصديَّة هي التسخير ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(لقمان:٢٠)، وفي مواطن من كتاب الله يبرز أن هذا الكون وحيُه هو أن يتسخّر لك أيها الإنسان، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾(فصلت:١٢)، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(الزلزلة:٤-٥)، وحيًا جديدًا، فحين يقول الإنسان: ما لها؟ ما لها لا تتسخر؟ يكون الجواب: إن ذاك الوحي القديم الذي هو وحي بالتسخر، قد نُسخ كما قال الإمام القرطبي في جامعه: "بوحي جديد هو وحي بعدم التسخر؛ لأن زمن الحساب قد أزف"، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾(الانشقاق:٣-٥). فهذا الكون إذن مسخَّر، ويمكّن من هذا التسخير، كون الإنسان قادرًا على تفهّمه من خلال المقوّمات التي زوَّده الله ﷻ بها، وفي مقدّمتها المواءمة ثم قدرة معرفة الأسماء.

أما في الجانب المسطور "الوحي"، فنجد أنه هو أيضًا بناء؛ فالله ﷻ يتحدث عن القرآن المجيد فيقول: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(الفرقان:٣٢)؛ والشيء الرَّتل هو الحسن البناء والنَّضد، وهو بناء له مستويات:

أولها: المستوى الصوتي القائم على نضد الحروف، ونضد الكلمات، ونضد الأصوات؛ أي بنائها. ثانيها: المستوى المفاهيمي، وثالثها: المستوى النسقي، ورابعها: المستوى التنزيلي، وخامسها: المستوى التقويمي.

والقرآن المجيد من خلال هذا البناء، كأنه جملة واحدة كما نصّ عليه أبو بكر ابن العربي -رحمه الله- حين قال: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرّض له إلا عالم واحد... ثم فتح الله ﷻ لنا فيه، فلما لم نجد له حمَلَة، ورأينا الخلق بأوصاف البطَلَة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورَدَدناه إليه".[1] وللإمام الشاطبي كلام أيضًا بهذا المعنى؛ أي أنّ القرآن كالخبر الواحد وكالجملة الواحدة، وابن حزم الأندلسي أيضًا له في إحكامه كلام يفيد هذا المعنى، والبرهان البقاعي والبدر الزركشي وغير هؤلاء، كلهم تكلّموا عن كون القرآن المجيد بناء عضويًّا، وأنه لا يفهم إلا بردّ بعضه على بعض.

وهذه البنائية هي التي مكّنت الإنسان من أن يقوم بالقراءة من خلال تلقي الكلمات، وهذا أبرز تجليات المواءمة بينه

وبين كتاب الختم، وقد ذمّ الله ﷻ الذين جعلوا القرآن عِضِين؛ أي الذين يفرّقونه ويعضّونه، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۞ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾(الحجر:٩٠-٩١). وإذا كانت القراءة في الجانب الكوني تتم بالتفكّر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾(آل عمران:١٩١). فإنها في الجانب المسطور "الوحي" تتم بالتدبر ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤).

إن الجمع بين القراءتين تجلٍّ من تجليات التكامل المعرفي في القرآن المجيد، فلا يخفى على قارئ ولا قارئة لكتاب الله ﷻ، أن أول ما أشرق من أنوار هذا الوحي الخاتم على دنيا الإنسان هو قوله سبحانه: ﴿اقْرَأْ﴾.

التسخير والتيسير

وتتجلى جمالية التعبير القرآني أيضًا من خلال التقابل بين "سخّر ويسّر"، فهناك التيسير ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ في أربعة مواضع من سورة القمر، وفي سورة مريم ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ إلى غير ذلك من مواضع ورود التيسير في القرآن الكريم. وهناك التسخير الوارد في مثل قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾(الأعراف:٥٤)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾(النحل:١٢)، ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾(الجاثية:١٢)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣)، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾(الأعراف:٥٤).

إن القراءة في الكون المسخَّر هي التي أعطتنا علوم التسخير، أي إن حوار الإنسان مع الكون، من خلال المواءمة التي له معه من خلال إقدار الله إياه على الدخول إلى مساربه بالأسماء، وتفكيك مجملاته هذا الحوار، هو الذي أعطى علوم التسخير التي تجعلنا قادرين على الحركة وعلى الفعل؛ إذ الكون هو مرجع الحركة ومرجع الفاعلية.

في الجانب الآخر نجد أن القراءة في الوحي الميسَّر هي التي أعطتنا علوم التيسير، فالحوار مع الوحي هو الذي مكّننا من القدرة على تبيّن الوجهة والقبلة المقصودة بالفعل والحركة، وحوار الإنسان المستدام مع الوحي من خلال بنائيته، ومن خلال المواءمة التي له معه، وكذا من خلال القدرة على التفهّم بسبب الكلمات التي أوتيها وتلقّاها عبر الرسل الكرام -عليهم جميعًا أزكى السلام- هو ما مكّن من تنمية علوم التيسير. قال عليٌّ كرم الله وجهه: "ذلكم القرآن فاستنطقوه"، وفي رواية عن عبد الله بن مسعود ﷺ: "ثوّروا القرآن"؛ أي حرّكوه لكي يخرج مكامنه.

فالقرآن المجيد في موازاة مع الكون الذي هو مرجع للحركة والقدرة والفاعلية، يصبح مرجعًا للقيم، ومرجعًا للوجهة ولحضور القبلة التي سوف ترشّد هذه الحركة. وجليّ أن القدرة على الحركة بدون قيم وبدون وجهة وبدون قبلة، قد تجعل من هذه الحركة فاتكة بالإنسان وبالأرض -الكوكب الذي يعيش عليه الإنسان- وبمحيط الإنسان. وهو ما حذّر منه رب العزة في سورة الأعراف في سبع آيات مفصلاتٍ فيها بيان، أن العلاقة الوطيدة بين القراءتين هي سبب الحياة والنماء، كما فيها أن الانفصال بينهما سبب الفساد والهلاك، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾(الأعراف:٥٢-٥٨).

إن العناية بإزاء القراءة في الكون مرجع الحركة والفعل، بالقراءة في الوحي لاستبانة القبلة، ولاستمداد الوجهة منه في محافظة دائمةٍ على الوصل، والجمع بين هاتين القراءتين هو

ما يجعل الحركة والفاعلية راشدتين بانيتين ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦).

باب العلم قبل القول والعمل

إن الإنسان وهو يتحرَّك في خضمّ ما سلف تؤطِّره أمور:

أولها: الرؤية الموجودة في القرآن المجيد والتي تبيّن دوره ووظيفته، كما تبيّن المحاور التي ينبغي أن يتوافر على الوعي بها لكي يكون فاعلاً.

ثانيها: الثمرة التي هي حاجته إلى العمل. فهذه الرؤية تكون بمثابة القطب الجاذب الذي يجعل القراءة في الكون، قراءة ناجعةً نافعةً لكن دون انفصال -وكما سلف- عن علم القبلة والوجهة، مما يجعل العمل عملاً يُتوَخَّى به إرضاء الله ﷻ؛ إذ هو ﷻ الذي أقدر عليه ومكّن منه ابتداء، ونحن نرى في القرآن المجيد كيف أن الإنسان اختُزِل في عمله، فحين نادى نوح ﵇ ربه قائلا: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾(هود:٤٥)، أجابه رب العزة بقوله: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(هود:٤٦)، فاختزل الإنسان في هذه الآية في عمله. وهذا العمل لن يكون ناجعًا إلا إذا كان -كما رأينا- مؤطَّرًا بالرؤية، وحيث قد قيل بحقٍّ إن فقه البخاري يتجلى في تراجمه، فقد أحسن -رحمه الله- حين قال: "باب العلم قبل القول والعمل".

إن التحديات التي يواجهها الإنسان القارئ أثناء فعل القراءة كثيرة، غير أن أهمها ثلاثة:

أولاً، تحدّي التمكّن من الوقوف على وظيفته وعلى دوره "الخلافة، الأمانة، العبادة" وأن يكون ذا وعي بالقيم الحاكمة الكبرى والتي يمكن إجمالها في ثلاث:

١- التوحيد

٢- التزكية

٣- العمران

وهي قيم حاكمة تتفرّع عن كل واحدةٍ منها مجموعة قيم ليس هذا مقام التفصيل فيها. فالوعي بالوظيفة والدَّور إذن، تحدٍّ أساسيّ يواجه الإنسان أثناء القراءة.

غير أن هذا التحدّي يسلّمنا إلى تحدٍّ ثان يسمّيه القرآن المجيد "الإبصار" في قوله تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾(الصافات:١٧٥)، وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾(الصافات:١٧٩)؛ أي أَعِنْهم على هذا الإبصار فسوف يبصرون، والمقصود أساسًا بالإبصار، هو إبصار العلامات والآيات، أي البصائر ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾(الأنعام:١٠٤).

ففي الجانب الكوني، نجد أن الكون فيه آيات؛ فالليل آية، والنهار آية، والشمس آية، والقمر آية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾(فصلت:٣٧)، وهذه الآيات وجب أن يوقف عليها ووجب أن تُتبين معالمها وألا يغفل عنها: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(يوسف:١٠٥).

وفي الوحي "الكتاب المسطور" نجد كذلك عبارة آيات، وهذه الآيات علامات، لأن الآية لغةً هي "العلامة" ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ﴾(البقرة:٢٤٨)، أي علامة ملكه.

فإبصار الآيات، والاهتداء بالعلامات، هو الذي يجعل الإنسان بعد التمثل للوظيفة وللدَّور، قادرًا على السير برشادة ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الملك:٢٢).

التحدّي الثالث -وهو الثمرة- أن يكون الإنسان عاملًا بمقتضى كلّ ما مضى، مع استحضار أنّ العمل يجزى عليه، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾(النجم:٣٩-٤١). وتحضرنا هنا حقيقة مؤقتية الإنسان، وكون المعاد نهاية حياة وبداية أخرى، نهاية حياة فيها عمل ولا حساب، وبداية أخرى فيها حساب وجزاء ولا عمل، وهو ما جاء في قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٨١)، كما يبرز مقوّم الإتقان باعتباره مقومًا أساسًا يجعل الإنسان من خلال إيمانه بالمعاد يروم أن يكسب الأجر الأوفى والأوفر مع رب العالمين ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾(الكهف:٣٠).

ومن مقوّمات العمل -كذلك- في هذه المنظومة الكلية بالإضافة إلى الإتقان، جانب النفع الذي أعطي في هذه المنظومة أهمية خاصةً ولّدت علوم المقاصد والمآلات مما هو مفصّل وبدقة في أبوابه.

وجبت الإشارة مرة أخرى إلى أنّ ثمة حاجة ملحة للضم بين القدرة على الحركة والفعل من جهة، والقدرة على استبانة الوجهة والقبلة من جهة ثانية، حتى يرشد الإنسان ولا يتيه. ونجد هذا الضم في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، بالإضافة إلى الموطن الأول الذي به افتتحنا حديثنا هذا،

أي أول آية في سورة العلق، بالإضافة إلى آياتِ سورة الأعراف. ومن هذه المواطن، سورة الواقعة، حيث نجد آية من أبلغ وأجلى ما يمكن أن تكون عليه الدلالة بهذا الصدد، وهي قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾(الواقعة: ٧٥-٧٩)؛ حيث نجد البنائية الكونية التي تبرز من خلال مواقع النجوم، ونجد البنائية القرآنية التي لا يمكن أن يوقف عليها إلا بمقوّم يبرز ها هنا بجلاء، وهو مقوّم الطهارة الذي يجعل الإنسان العالم قادرًا على دخول كنّ القرآن المجيد واستخلاص هدايته.

إن العناية بإزاء القراءة في الكون مرجع الحركة والفعل، بالقراءة في الوحي لاستبانة القبلة، ولاستمداد الوجهة منه في محافظة دائمة على الوصل، والجمع بين هاتين القراءتين هو ما يجعل الحركة والفاعلية راشدتين بانيتين.

مقوّم المنهاجية

مقوم آخر لابد منه لمسّ القرآن الكريم، هو مقوم المنهاجية، ويشترط فيها:

١- أن تكون هادفةً دائمًا لتحقيق السعادتين في العاجل وفي الآجل.

٢- أن تكون تجريبية تأثيلية، وتكاملية عبر الزمن.

٣- أن تكون منفتحة قابلة للنماء، أي لا تكون عبارة عن أنساق مغلقة.

٤- أن تؤدي إلى التسبيح، أي الوقوف على عظمة الخالق من خلال خلقه، لكن قبل ذلك وأثناءه وبعده، من خلال كلامه الأزلي الخالد.

٥- الفاعلية والنجاعة والإحكام.

وإذ إن حديثنا حديث عن التكامل المعرفي الناجم عن الضمّ والجمع بين القراءتين، فإنه تجدر الإشارة إلى أنه لتحقيق القراءة التكاملية، لابد من عدم إهمال الجانب المؤسَّساتي وهو جانب بدوره له مجموعة من المقوِّمات يمكن إجمالها فيما يأتي:

١ - توضيح مقاصد المؤسَّسات قبل أن يبدأ العمل فيها، وقبل أن ترصد لها إمكاناتها ومواردها، وكذا قبل أن تخطّط برامجها، حيث يجب أن تكون المقاصد بيّنة وواضحة بين يدي ذلك كله.

٢- المضمون المستجيب للمقاصد، وتتمحور حول كل هذا، مجموعة من المعارف والعلوم، والقدرات التي وجب أن تكتسب من أجل بلورة المضامين الأنسب.

٣- البشر المكوّن والمكوَّن قصد الاضطلاع بما سبق.

٤- دراسات الجدوى في كل حين بطريقةٍ جزئية ثم بطريقة كلية.

٥- الهياكل القانونية والإدارية الممكنة مما سبق والميسّرة له.

٦- استيفاء الجوانب المادية.

٧- التقويم حتى يقبل الجيّد ويدرأ غيره.

وبدون التكامل بين هذه المقوِّمات؛ مقوِّمات القراءة والمناهج والمؤسسات، فإن فعل القراءة غير التكاملية، قد ولّد مجموعة من الاختلالات التي نعاني منها بجلاءٍ في واقعنا المعاصر.

ولكي يكون فعل القراءة التكاملية بين الكتابين المنظور والمسطور، وبين العلوم المنبثقة عن الحوار معهما، ونقصد بذلك علوم التيسير وعلوم التسخير أمرًا ممكنًا، لابد أن يضطلع الإنسان بكل ما سلف من مقوّمات، حتى يكون الجمع بين القراءتين قادحًا لزَند التكامل والتنامي والإغناء لكلٍّ منهما، ضامًّا بين القدرة على الحركة والقدرة على استحضار القبلة واستبانة الوجهة واستخلاص القيم، وعابرًا بين الكتابين والعلوم المستخلصة منهما، بالخبرات المستكنهة من كل منهما، إلى كل منهما.

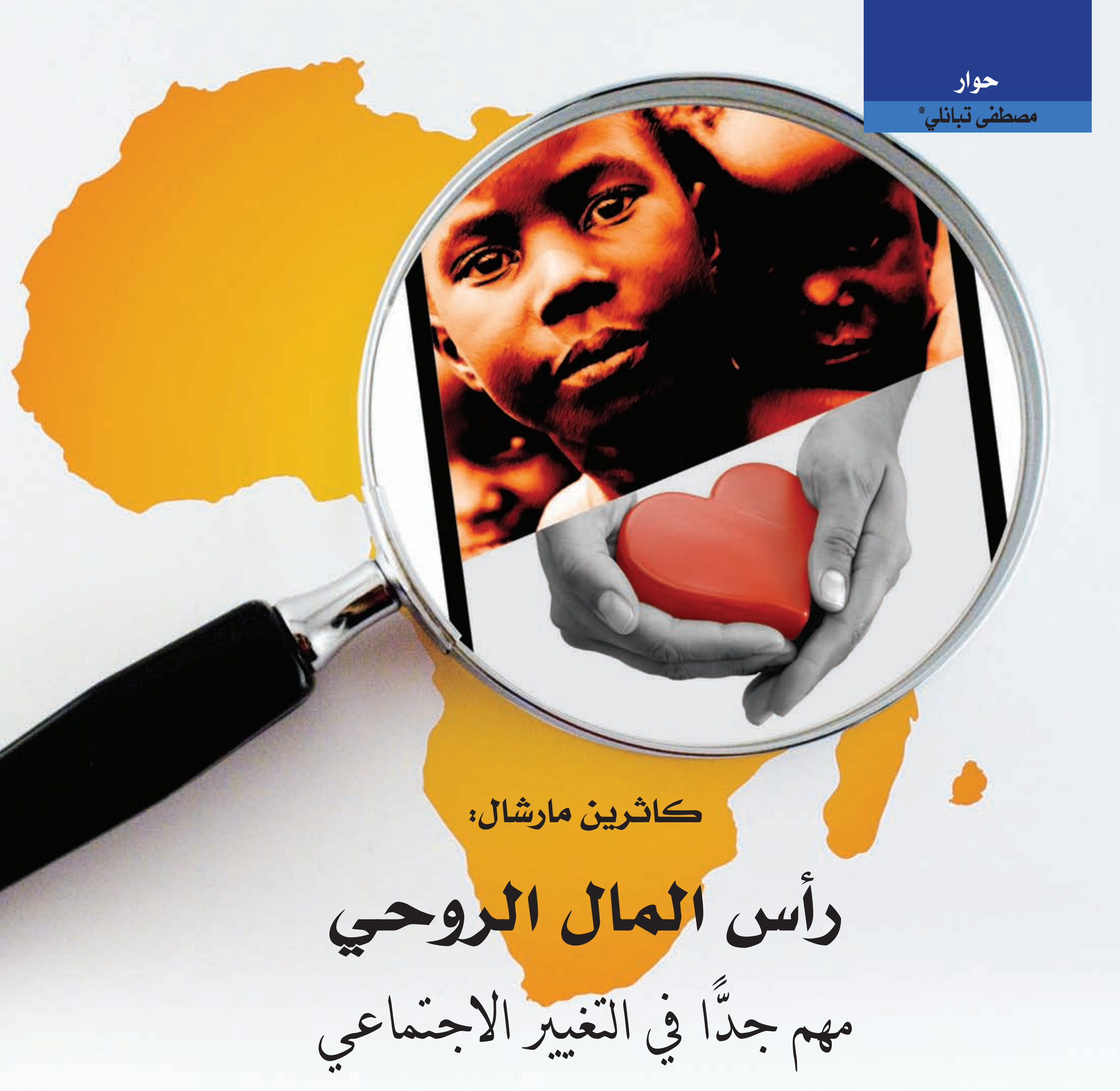
هذه جملة أفكار مركّزة، حاولت من خلالها ملامسة الأسس النظرية، والشروط التطبيقية، لبلوغ غاية التكامل المعرفي التي جاء كتاب الختم "القرآن" ليمكّننا منها، عبر تجلية بعض سبل ذلك بآياته وبصائره، وبحسبنا أن تكون هذه الإشارات عبارة عن صور أولية ترسم معالم هذا الدرب القرآني المبارك المديد. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(1) نظم الدرر، ٦/١-٧.

مصطفى تبانلي*



كاثرين مارشال:

رأس المال الروحي

مهم جدًّا في التغيير الاجتماعي

عند الحديث عن رأس المال، يتبادر إلى أذهان معظم الناس، المال والذهب والعقارات والأراضي.. لكن ترى "كاثرين مارشال" الأستاذة بمركز بيركلي للديانة والسلام والشؤون الدولية في جورج تاون بواشنطون، أن هناك رؤية جديدة تركّز على رأس المال غير التقليدي.

ففي هذا اللقاء، تشاركنا الأستاذة "كاثرين مارشال" آراءها حول الثروة التي يمكن أن تلعب دورًا مهمًا في ترسيخ القيم "الروحية" في النفوس والمجتمعات، والتي -بواسطتها- يعمّ الخير في العالم وتنتشر الفضيلة بين البشرية جمعاء... فإليكم نص الحوار.

– هل لكِ أن تحدثينا عن الفقر الراهن في العالم في ظل تراجع التنمية والتطوير؟

العالم اليوم مقسّم إلى أقسام. فهناك كثير من الناس -وأكثر من أيّ وقتٍ مضى في تاريخ الإنسانية- يعيشون حياة كريمة ويملكون الثروة والرفاهية، وهناك مجموعة كبيرة من الناس يعيشون في مستوى وسطٍ، لكن هناك حوالي مليار شخص -وهو ما يُمثل سدس سكان العالم- يعيشون في فقر مدقع ومريع، بل إن نصف سكان العالم يعيشون في مستوياتٍ اقتصادية ومالية أقل من العادي. ولكن إذا ما ألقينا نظرة عامة إلى العالم، فنرى أن هناك شيئًا يروّح عن النفس ولو قليلا، ألا وهو الفقر الذي تراجع نحو الأحسن، قياسًا

إلـى أي وقـت مضـى. والجديـر بالذكـر أن كثيرًا مـن الناس قـد عاشـوا حياة قصيرة فـي معظم تاريخ الإنسـانية، وأن ربع أطفـال العالم قد ماتوا قبل سـن الخامسـة، بينمـا القليل جدًا مـن الناس حظي بنصيب من التعليـم. لذلك فإن العالم اليوم مختلـف تمامًا عـن ذي قبل، فهو أصبح عالمًا ينعم فيه قسـم كبير من البشر بالفرص للعيش الكريم، أي أصبح لدى الكثير مـن النـاس إمكانيـة العيش الكريـم أكثر مـن أي وقت مضى نتيجة التطورات التي حدثت في العالم كافة في الخمسين سنة الأخيرة. هذا من جهة.

ومـن جهة ثانية، أعتقد أن هناك -فـي العالم- صحوة في الضميـر الأخلاقـي، تتجلى فـي أهداف تطـور الألفيّة، حيث أضحـت خطابات القـادة والمفكرين في العالـم، تدور حول مشـكلة الفقـر الـذي يعاني منه قسـم كبير من سـكان العالم، مصرّحين أن استمرارية هذا الأمر لم يعد مقبولا على الإطلاق ولابد من تغييره.

–كيـف يمكننـا أن نربط أهداف تطـور الألفيّة بالصحوة الأخلاقية؟

فيمـا يتعلـق بالألفيّـة، فإن هنـاك قـدرًا كبيرًا مـن التفكير بخصـوص مـا تحقق مـن قبل وما سـيتحقق في المسـتقبل.. وإحدى العقبات هي أن كثيرًا من الناس علموا بانعقاد اجتماع بعد اجتماع حول البيئة والنسـاء والصحة والنقل.. وحول كل موضوع يمكن تناوله في أيّ اجتماع. كانت هناك وعود جلى، وكلمـات مثيـرة، ونصوص وتصريحـات كثيرة، لكـن عندما تمعن النظر في ذلك ترى أن كل ما قيل ظل في سـطور على أوراق مـن دون تنفيـذ. وبناءً على ذلـك قامت الأمم المتحدة بتنظيم اجتماع تاريخي شـمل زعماء العالم في سبتمبر/أيلول عـام ٢٠٠٠ بمناسـبة حلـول الألفيّـة الجديـدة، وتـم الاتفاق علـى ضرورة القضاء على الفقر فـي العالم. ونتيجة لذلك تم اتخاذ قرار بأن ينظَّم اجتماع آخر -من هذا القبيل- بعدما تعدّ الإحصائيات والجداول التي تبيّن مسـتوى الفقر الموجود في عالـم اليـوم، من أجل إعـداد العدة لإنهائـه، ووُضعت ثمانية أهـداف -حفرت في أذهان البشـر لها مكانًـا- لتطوير الألفيّة الجديدة. إلا أن المقلق في ذلك، هو كيفية السـعي وراء هذه الأهـداف وطريقـة التطبيق لها، بالإضافة إلى مَن سـيقود هذه المسؤولية.. كل ذلك يوحي إلى اندثار هذه الأفكار التي تظل بسـيطة أمام الأوضاع المؤلمة في العالم. على سـبيل المثال، اتُّخـذ قـرار في تخفيض الفقر إلى نصف المسـتوى الموجود حتـى حلـول عام ٢٠١٥. فكيف يمكـن أن تتحدث عن إنهاء الفقـر تمامًـا من على سـطح الأرض وقد اسـتهدفت النصف فقط! ثم كيف تقول إن كل الأولاد سيتلقون التعليم الابتدائي، ثم تتوجه بـ"الكاج" إلى مساواة الرجل بالمرأة! فمن السهل أن تضع الأهداف، لكن أن تسـعى وراء تحقيقها، فهو من الأمور التي تتطلب العزم والجد والعمل الدؤوب.

–كيف تسـتطيع التكنولوجيا أن تسهّل الانتقال من الفقر إلى الثراء، أو ما هو الدور الذي ينبغي أن تلعبه التكنولوجيا في هذه العملية؟

تلعـب التكنولوجيا أدوارًا شـتى في مجالات شـتى ولعل أكثرها أهميّةً هي تكنولوجيا الصحة والبيئة، حيث يمكن اليوم عـلاج كثير من الأمراض التي أودت بحياة ملايين الناس عبر تاريـخ البشـرية. وكلنا يذكـر كيف أن الكثير مـن الأطفال قد ماتوا -على مر التاريخ- بسـبب إصابتهم بأمراض تنفسـيّة أو مـرض الإسـهال وغيرها مـن الأمراض. وكذلك فـإن التطور في تكنولوجيا التعليم -أيضًا- يعتبر من أهم التغيرات. حالها فـي ذلك حال التغيرات فـي إدراك كيفية الأعمال الاقتصادية وأعمال الإنتاج الغذائي والنقل وإمكانية الاتصال.. فمثلًا، في حال امتلاكك العلم يمكنك تحويل الكارثة -خلال سـاعات معدودات- إلى أمر طبيعي عادي.

هـذا وقد مـات مئات الملايين من البشـر خـلال القرنين الثامـن والتاسـع عشـر فـي جـزر "الـرأس الأخضـر" نتيجـة المجاعـة التـي حدثـت، ولا أحد عرف سـبب ذلـك إلا بعد مضـي أزمنة طويلة. واليوم فإن وقـوع فاجعة كهذه، لا يمكن أن تحـدث بسـهولة، وذلـك لوجود طـرق عديـدة منبثقة من العلم والتكنولوجيا والهندسة والاتصالات.

– لا شـك أن للتكنولوجيا دورًا مهمًّـا وأن التغيير يتطلب استثمار رأس المال، ولكن الاقتصاديين اليوم، أصبحوا يأخذون بعين الاعتبـار، رؤوس الأمـوال غير التقليدية؛ كـرأس المال البشـري والاجتماعي.. فما غايتهم فـي ذلك؟ وهل هي قابلة للتبادل أم متعلقة ببعضها البعض بطريقة من الطرق؟

مـن أهـم السـبل لإدراك التطـور الحاصل فـي العالم في العشـرين سـنة الماضية، هي أنه لا يوجد شيء أعلى شأنًا من الاسـتثمار في البشر، كما أن المصطلح المستخدم في التنمية البشـرية هو "رأس المال البشـري"، وإن رأس المال البشـري

يعني -اليوم- تطوير القوة الكامنة للبشر إلى أقصى حدٍّ ممكن.

وهناك بعدٌ آخر قد تم إضافته مؤخرًا، لعله يندرج تحت اسم "رأس المال الروحي". وقد تفقد الحياة معناها الروحي إذا كانت الغاية منها الأكل والشرب والنوم والعمل فقط، لأن الروح هي التي تدفع المرء لمساعدة الآخرين. ولعل هذا من الأمور التي حثت عليه كل الأديان، لذلك قيل: "عامل الناس كما تحب أن يعاملك الناس". هذا ما جعل الناس يدرسون الاستثمارات التي تندرج تحت التنمية أو التطور الروحي.

– إن سيادتك اليوم تقودين مركز بيركلي للديانة والسلام والشؤون الدولية في جورج تاون، كما كنتِ –سيادتك– تقودين برنامج الحوار في القيم والأخلاقيات التابع للبنك الدولي ما بين عامي ٢٠٠٠-٢٠٠٦. كيف ارتبطتِ بذلك؟

في ثمانينات القرن الماضي، مرّت فترة كان فيها البنك الدولي، والتنمية الدولية البريطانية، في خلاف مع الكثير من القادة والمنظمات الدينية في العالم. وعندما كان المتدينون يتظاهرون في الشوارع، أغلقت منظمات التنمية أبوابها وأدارت ظهرها لما يجري، ولم تبد أي اهتمام بذلك. ولكن فيما بعد، أدرك الجميع أن كل ما يجري لا معنى له، ثم إن وجهة النظر المشتركة إلى الفقر عند الجميع -وهي ضرورة القضاء على الفقر- أدت إلى التقارب وإقامة الحوار والتعاون بين الأطراف. وبالتالي فإن ضرورة النمو الاقتصادي دعت كل الأطراف إلى الحوار وتبادل الآراء حول القضايا المتعلقة بالاقتصاد.

لقد عملتُ لعقود طويلة من أجل التنمية، وكان معظم عملي في إفريقيا، وشرق آسيا، وأمريكا اللاتينية، ومناطق أخرى عديدة من العالم.. وذات يوم طلب مني رئيس البنك الدولي "جيم ولفنسون"، مساعدته في مشروع بشأن التنمية بين الأديان العالمية. فمن ثم قمت بوضع مسودّة العمل على مضض، وكان ذلك حوالي عام ١٩٩٩، كنت لا أعرف إلا القليل عن عالم الدين، ولكني أعرف الكثير عن الفقر، وكنتُ مهتمة بالغ الاهتمام في الأبعاد والقيم الاجتماعية والتاريخية والإنسانية، حيث كنتُ أؤمن بهذه القيم من الصميم، هذا ما جعلني أستغل الفرصة لأنتقل إلى عالم جديد كليًّا.

– بالاستناد إلى خبرات سيادتكِ، ماذا يمكن أن تقولي عن دور الأديان في التنمية والتطور؟

بدأتُ بدراسة المشتركات والفوارق بين الدين والتنمية حوالي عام ١٩٩٩. في البداية بدا لي وكأنه تحدٍّ منطقي ومباشر نسبيًّا، لأن المنظمات الدينية، والكنيسة الكاثوليكية، والمنظمات الإسلامية، والبوذيّة، والهندوسيّة كانت تقوم بخدماتها الاجتماعية بدور التزويد والإغاثة، وهي من هذا القبيل هامة بالنسبة للفقراء وكذلك للأغنياء على حد سواء في معظم أنحاء العالم. وقد استغربنا من هذا الاقتراح الذي يثير الجدل من حيث محاولته الربط بين الدين والتنمية. بينما توضّح لنا فيما بعد، أن بعض الناس افترض أن التطور والتقدم العلمي سيؤدي -بسهولة- إلى اندثار الدين أو أن الدين سيصبح خيارًا ليوم جمعة أو ليوم أحد، ولم يعد يقوم بدوره الحساس في حياة البشر، وذلك بسبب انتقالهم إلى مرحلة مختلفة في التطور. إلا أن اليوم تبيّن -وبالدليل القاطع- أن ذلك الافتراض كان افتراءًا وكذبًا وزيفًا على الدين، لأن الدين اليوم أضحى أكثر أهمية وأعظم شأنًا في المجتمعات الغنية والفقيرة من أي وقتٍ مضى، وبذلك دُحضت كل هذه الأفكار والفرضيات. بيد أن هناك أناسًا ما زالوا منزعجين جدًّا من الدور الذي يقوم به الدين في دائرة السلم الاجتماعي وفي منحه للحياة روحًا وقيمًا حيوية. وكما رفضت السياسة، فقد رفض الدين -أيضًا- أمورًا لا يمكن قبولها البته؛ منها قيام العالم الغني باستغلال العالم الفقير، وحصر حياتهم ومعيشتهم في مصادر وموادر ضعيفة ومحدودة. وبالنسبة لكثيرٍ من الناس فإن الجواب يكمن أولا، في الحدّ من تبذير واستهلاك الفرد للمصادر لكي تتوفر لدينا حياة كريمة. ثانيًا، هناك حاجة للمزيد من الطاقة في التنمية التكنولوجية الجديدة، بحيث يستطيع الناس الاستفادة من جدوى الحداثة دون تدمير كوكب الأرض. لكنّي أعتقد أن موضوع مغزى العدالة يحتاج إلى اهتمام أكبر، إذ هو صورة للمجتمعات التي تقوم على التوازن والاعتدال. وأرى أنه من المستحيل أن نتصور مستقبل عالم يفتقر إلى التوازن، حيث تقلّص فيه الفجوة الكائنة بين الفقراء والأغنياء، وحيث يستفيد الجميع فيه من التنمية والتطور البشري، وحيث تتحول فيه الأفكار والإبداعات إلى قاسم مشترك بين كافة المجتمعات في العالم.

– ما هو الطريق الأنجع في الوصول إلى النتائج المثمرة؟

التغيّر الاجتماعي يتضمن تغييرًا في عدد الوظائف والأدوار الاجتماعية ونوعيتها. وعندما كانت ظاهرة التغير والحركة ظاهرة ملموسة ومستمرة دون توقف، فنجدها



إذا ما الهلال ابتسم

يا هلالاً إلينا يرنو،
مشرقَ الأسارير، مبتسم الثغر،
دفَّاقًا بالأمل، خفَّاقًا بالحياة،
مبشرًا بمولد عالم جديد،
صورته ماورائية الملامح،
غيبية القَسَمات،
قيدَ الأمة تكسر،
ومسكنَتها تمحو،
وذِلّتها عِزَّةً تحوّل،
وضعفها قوةً تبدّل...

* * *

قد اتخذت مركز الصدارة من التفكير البشري. فإن مفهوم التغير عولج من قبل المفكرين في المجتمعات بوجهات نظر وتصورات مختلفة، وذلك تبعًا للاتجاهات الفكرية والأيديولوجيات السائدة في كل مجتمع من المجتمعات. وما يتفق عليه المفكرون والسياسيون والمثقفون وغيرهم، هو أن التغير الاجتماعي ظاهرة اجتماعية وحقيقة لابد منها. فالمجتمع بطبيعته متغير، فهو يأخذ من الجيل السابق جوانب ثقافية وعلمية وفكرية ويضيف إليها أشياء تتفق مع واقعه الاجتماعي ومتطلباته المستجدة. فيجب إذن أن يكون لدى كل مجتمع سياسة اجتماعية واقتصادية يسير عليها أولًا، وأن يملك الآليات المناسبة لإحداث التغيير ثانيًا.

فمثلًا، لنفترض أن هناك مجتمعًا يحمل أفكارًا متميزة لتسويق حبوب أو لإصلاح أرض جديدة أو لبناء مجموعة من المدارس، بيد أنه لا يملك المصادر اللازمة لإنجازها، إنما يجد هذه المصادر لدى شخص أو مؤسسة أو حكومة أو منظمة -مثل البنك الدولي- في خارج بلاده. فماذا يفعل عندئذ؟ تراه يسعى إلى تأمين هذه المصادر من تلك الجهات ليحقق التغيير والتنمية في ذاته وكيانه.

ففي قطاع التعليم -مثلا- كثيرًا ما يطرح التساؤل حول سبب غياب الفتيات أو حرمانهن من التعليم. وتقدَّم كثير من الإجابات حول هذه الإشكالية من قبيل: حاجة الأسر للفتيات في المنازل أو الظروف لا تسمح للفتيات بالذهاب إلى المدارس في ظروف آمنة كغياب المواصلات والبنيات التحتية الضرورية. وهذا ما يدفع بأطراف ومؤسسات خارجية للتدخل عبر إيجاد بعض الآليات لاستيعاب بعض هذه المشكلات. وفي نفس الاتجاه يتدخل زعماء سياسيون ومدنيون وقيادات نسائية، وكذلك فاعلون في الحقل الديني بغية تشجيع المجتمع لإرسال الفتيات إلى المدارس للتعلّم. وهذا ما يساهم في إقناع الآباء والأمهات لإرسال الفتيات إلى المؤسسات التعليمية، مما يؤدي في النهاية إلى بروز العنصر النسائي في قطاعات حيوية ومهمة للمجتمع مثل الصحة والهندسة وإدارة الشأن العام.

فمن كل ما ذكرنا نخلص إلى أنه من المفيد مواكبة متطلبات الحياة المعاصرة بأبعادها المادية والروحية. ■

(*) باحث وصحفي تركي. الترجمة عن الإنكليزية: محمد غياث حسن.

السلوك وفتح القلوب

لا شك أن السّر الذي هزّ أركان الأرض كلها على أيدي أحد عشر حواريا هو إخلاصهم العميق وسلوكهم الصادق الذي يدفع الناس إلى الإيمان. وكذلك ساداتنا الصحابة الكرام رضوان الله عليهم عندما انطلقوا في شتى بقاع العالم يحملون مشاعل الإيمان في أيديهم، كان السر الأعظم في تفتّح القلوب لهم بالقبول حيثما حلّوا، يكمن في سلوكهم الصادق الذي يستحث القلوبَ على الاستجابة والإيمان.

وهكذا سارت قاطرة الزمان قرنا بعد قرن حتى بلغت عصرنا الراهن، فإذا بالمسلمين قد ازدادت أعدادهم كثرة، وامتدت رقعة أراضيهم طولا وعرضا، في حين أن الروح فقدت لهيبَها في النفوس، والمعاني انطفأت جذوتُها في القلوب، فاختلّ التوازن بين الكمّ والكيف.

اليوم لدينا العقل المفكّر وعندنا المنطق المدبِّر، وقد تفوقنا على القدماء من أسلافنا في مجال العلوم والمعارف والتكنولوجيا بصورة هائلة لا تقبل المقارنة. لكن شتان بين قلوبنا وبين القلوب التي كانت تخفق في جوانحهم. إننا اليوم محرومون من نعمة كبرى كانوا يملكونها.. نعمة الاستشعار بالله في كل خفقة من خفقات القلب، ثم تجلي ذلك الاستشعار في ملامح الوجه وظهورُ آثاره في السلوك. أجل، كان ينبغي أن ينعكس خلجان القلب وخفقانه على وجوهنا وسلوكنا، وأن يكون مَظهرُنا مرآة لما يموج في بواطننا من يقين؛ تماما مثل الساعة حينما يتجلى عملها الداخلي على هيئتها الخارجية في صورة نظام عجيب حيث تتنقل العقارب بين الثواني والدقائق والساعات بدقة فائقة تدفع المرءَ إلى أن يقول "ما أعظم هذا الإبداع وما أروعه!.." تنبّهْ إلى أنّ محركاتِ الساعة الداخليةَ هي الموجِّهُ الحقيقي لنظامها الخارجي.

إن منابع الحيوية كامنة في بواطن الإنسان؛ في قلبه، في لطيفته الربانية، في سره، في خفيّه، في أخفاه، في أعماقه اللانهائية. وعندما تتفجر هذه المنابع من الأعماق تظهر انعكاساتها سلوكا على الجوارح والملامح والأطراف.

ومن ثم فما يَنقص العالَمَ الإسلامي اليوم ليس العلم ولا التكنولوجيا ولا المال -لا شك أن لكل عنصر من هذه العناصر دورا مهما- إنما نقصنا الحقيقي

هو سلوك صادق، وحال خالصة، وحياة قلبية عميقة وواسعة توجّهنا في قيامنا وقعودنا وترشدنا في حِلّنا وترحالنا. إن ما ينقصنا صورة سلوكية صادقة تحرّك مكامن الإيمان في قلوب الناس وتحضهم على التصديق برسالتنا الخالدة.

المكابدة والمكافأة

بقدر ما يحتاج الإنسان إلى القرآن، يتطلب القرآن في التعبير عن ذاته وجوهره أناسا مخلصين أنقياء اصطبغت قلوبهم بصبغة القرآن فتَقَرْأَنوا. عندما يُوضَع كتاب الله في معلقات مخمليّة جميلة على رفوف عالية مزخرفة، فلا يَرى النورَ إلا بين الحين والآخر لِتلمسه الأيدي إجلالا، وتقبّله الشفاهُ تبرّكا، وتعيده إلى مكانه يتيما، فمعنى ذلك أنه سجين لا يستطيع التعبير عن نفسه والإفصاح عن حقائقه، وكيف يتسنى له ذلك وليس هناك من يمثل رسالته السامية؟!

لقد كان القرآن حاضرا وفاعلا في الحياة على مرّ القرون، وكان الدليلَ الهادي والروح الساري لجميع البشرية منذ اللحظة الأولى التي تجلّى فيها على الأرض. فتارة انطلق نداؤه في الأرجاء كافة يشدو ويصدح ويدوي في الزمان والمكان؛ وتارة بحّ صوتُه، وخبا نورُه، وانكمش في صمت كئيب، حينما أُلجِمَ عن الكلام، ووُضِع في القُطُف المخمليّة مكبّلا، وأُلقي في حجرات الزينة سجينا بئيسا.

بالله عليك كيف تنتظر أن تنال ما ناله الكادحون المكابدون من أرباب القلوب التي تفتتت وذابت من أجل القرآن، وقلبك لم يتفتت من أجله مرة واحدة ولم يَذُب في سبيله قط. صحيح أن اللطيف المنّان قد يتجلى على عبده بعطايا لم ينتظرها وألطاف لم يحتسبها، غير أن القاعدة تقول بقدر الكدح والمكابدة، تكتسب العطية والمكافأة. إذنْ بادِر إلى إحياء الليالي بالتضرع والابتهال؛ اصبغ ظلمة ليلك بصبغة النهار وضيائه ستجد الله قد صبغ ظلمات حياتك ولياليها بأنوار النهار الأغر؛ وحوّل ليالي دنياك إلى أيام بيضاء، ستجد الله قد حوّل ظلمات آخرتك إلى أنوار. واعلم أن الوجوه التي تمرغت على عتبات الرحمن، لا يخذلها الله أبدا، ولا يُخزيها، ولا يتركها تُوطأ تحت الأقدام؛ لكنْ بشرط أن تُقبل عليه بكل قلبك، وتتجه إلى بابه بكل جوارحك وتهتف: يا رب من لي سواك؟! خذ بيدي... يا رب يا رب... ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

أنس إبراهيم الدغيم*

صلاةٌ في محراب الجمال

حتّى تغيبَ وتنمحي ظلماتي … أسكنتُ حبّكَ في رحابِ حياتي
وحططتُ رحلي قربَ بابكَ خاشعًا … مستسلمَ الحركاتِ والسّكناتِ
يا ربّ إنّي في هواكَ متيّمٌ … فاقبلْ رجائي وامحُ لي صبواتي
وإذا دعوتكَ يا إلهي راجيًا … فأجبْ سؤالي واستجبْ دعواتي
يا ربّ هام العاشقون بعشقهم … وتمايلوا بتمايلِ النّغماتِ
وتخاطرتْ أرواحهم في ليلها … وتسامرتْ بأطايبِ اللّمحاتِ
وبقيتُ وحدي لا رفيقَ لوحشتي … إلا دموعَ العينِ والزّفراتِ
فأتيتُ أعتابَ الجلالة باسطًا … كفَّ الضراعة ساكنَ النّظراتِ
وأنختُ في حرمِ الجمال مطيّتي … وأقمتُ في محرابه صلواتي
وشربتُ من خمرِ الجلالة شربةً … قدسيّةً علويّةَ الكاساتِ
أسقطتُ في محراب حبّكَ هاتفًا … يا سيّدي أحرقْ بذاتكَ ذاتي
يا سيدي إني أخذتُ دمي وقد … سوّيته حبرًا على صفحاتي
الناسُ غنّوا للجمال وما دروا … أنّ الجمالَ يفيضُ من كلماتي
ضحكاتُ قلبي في هواكَ لذيذةٌ … وألذّ منها في الهوى دمعاتي
يا ربّ إنّي في فضاكَ هباءةٌ … لكنْ بحبّك من أولي العزماتِ
حاشا لغيركَ أن يكونَ توددي … أو أن تفيضَ أمامه عبراتي
حاشا لغيركَ أن أطأطئ هامتي … أو أن أبيحَ حرارة السّجداتِ
يا ربّ! ما مُدّتْ يدايَ إلى امرئٍ … إلا جعلتكَ قبلةَ الخطراتِ
كلا ولم أقصدْ سواكَ لحاجةٍ … إلا علمتكَ قاضيَ الحاجاتِ
يا ربّ إن أخذتْ فؤادي ساعةً … سِنةٌ من الآثام والسكراتِ
فلقدْ تربّى في رحابكَ عاشقًا … فاجلُ الخطايا عنه والحسراتِ
واكشفْ كروبَ العيش عنّي رحمةً … وتلطّفًا يا كاشفَ الكرباتِ
يا ربّ إنْ حانَ اللّقاءُ غدًا وقدْ … جُمعتْ إلى يوم الحسابِ رفاتي
وأتيتكَ اللّهمّ موهونَ القوى … صفرَ اليدين مقصّرَ الخطواتِ
يا ربّ! فاغفرْ زلّتي كرمًا فما … ألفيتُ غيركَ غافرَ الزّلاتِ

(*) شاعر سوري.

أ.د. محمد عمارة*

المسلم والجمال

إذا كانت "الحضارة" هي جماع إبداع الأمة في عالمي "الفكر" و"الأشياء"، أي في "الثقافة" التي تهذّب الإنسان وترتقي به، وفي "التمدن" الذي يجسد ثمرات الفكر -في التطبيق والتقنية- أشياء يستمتع بها الإنسان المتحضر.. إذا كانت هذه هي "الحضارة"، فإنها كإبداع بشري في المنظور الإسلامي وفي التجربة الإسلامية، وثيقة الصلة بدين الإسلام كوضع إلهي نزل به الوحي على قلب رسول الله ﷺ.

ففي التجربة الحضارية الإسلامية، كان "الدين" هو الطاقة التي أثمرت -ضمن ثمراتها؛ توحيد الأمة وقيام الدولة والإبداع في كل ميادين العلوم والفنون والآداب- شرعية وعقلية وتجريبية، كما كان الدافع للتفتح على المواريث القديمة والحديثة للحضارة الأخرى، وإحيائها وغربلتها وعرضها على معايير الإسلام، واستلهام المتسق منها مع هذه المعايير، لتصبح جزءًا من نسيج هذه الحضارة الإسلامية التي وإن كانت إبداعًا بشريًا، إلا أنها قد اصطبغت بصبغة الإسلام (الدين)، كما كانت ثمرة للطاقة التي مثلها وأحدثها عندما تجسد في واقع المسلمين. تلك هي العروة الوثقى بين دين الإسلام



وبين حضارته، بما فيها من إبداع شمل مختلف الميادين؛ الشرعية، والعقلية، والتجريبية، والجمالية.

الدين ومنبع الإبداع الجمالي

إننا لو تأملنا في مكان "الهجرة" في دعوة الإسلام ودولته وأمته، لرأيناها أكثر وأكبر من إنجاز لإنقاذ الدعوة من حصار "الشرك المكي"، لأن الهجرة في حياة هذه الدعوة، لم تقف عند الهجرة من مكة إلى المدينة -ومن قبلها الحبشة- وإنما كانت أيضًا، هجرة من "البداوة" إلى "الحضارة"، من "البادية" إلى "الحاضرة"، من حياة "الأعراب" التي تغلب عليها الغلظة ويسود فيها الجفاء، إلى حياة "العرب" الذين استقروا في "القرى"، فغدا بإمكانهم أن يقيموا "مدينة" و"حضارة" في هذه "القرى".. كانت إنجازًا حضاريًا، ينتقل بالجماعة البشرية من طور ترحال البداوة الذي يستحيل معه قيام "التراكم" في الإبداع الثقافي والتمدّني، إلى طور الاستقرار والحضور في "القرى" الحاضرة، الأمر الذي يتيح لإبداعات الإنسان أن "تتراكم"، فتعلو بناءًا حضاريًا مناسبًا للجهد الإبداعي المبذول فيه. تلك هي "المكانة الحضارية" للهجرة في حياة دعوة الإسلام في عصر صدر الإسلام، وتلك هي بدايات خيوط العروة الوثقى بين الإسلام "الدين"؛ الوضع الإلهي، وبين الحضارة الإسلامية؛ الإبداع الإسلامي لأمة الإسلام.

وفي ضوء هذه "الحقيقة الحضارية" نفهم اصطفاء الله ﷻ "مكة" أم "القرى" وحاضرة الحواضر، مهبطًا للوحي بالدين الجديد، ونفهم مغزى كون "يثرب" المدينة وهي ثانية القرى والحواضر، هي دار الهجرة وعاصمة الدولة ومنارة الدعوة، بل نفهم سر استمساك القرى والحواضر الثلاث "المدينة" و"مكة" و"الطائف"، بالإسلام يوم ارتدّت عنه -أو عن وحدة دولته- البوادي بمن فيها من الأعراب، عندما زلزلت وفاة الرسول ﷺ قلوب هؤلاء البدو الأعراب.. نفهم جميع ذلك في ضوء العلاقة العضوية بين هذا الدين وبين الإبداع الحضاري للإنسان الذي تديّن بهذا الدين.

بل ونفهم أن هذه العلاقة بين "الدين" وبين "الحضارة" -ومن ثم ف"الحضارة" ليست خصيصة إسلامية- إنما هي سنة من سنن الله في كل الشرائع والرسالات. فكما اصطفى الله ﷻ حاضرة مكة، لتبدأ منها الدعوة قائلًا لرسوله ﷺ: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الأنعام:٩٢) أنبأنا في قرآنه الكريم، أن هذا الاصطفاء إنما كان اطرادًا لسنة إلهية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾(القصص:٥٩). فأمّ القرى وحاضرة الحواضر، كانت دائمًا هي موطن الرسل والرسالات، ذلك للعلاقة العضوية بين "الدين" و"الحضارة" على امتداد تارخ الإسلام.

تلك هي بدايات الخيوط بين الإسلام (الدين) وبين الحضارة، وهي بدايات لا ترشحه كي يوحي بالتجهم إزاءها، ولا بمخاصمة إبداعاتها الجمالية بحال من الأحوال.

الجمال المسخَّر للإنسان

إن "الجمال" الذي يظن بعض من الناس مخاصمة الإسلام إياه، هو -إذا نحن تأملناه- بعض من آيات الله ﷻ التي أبدعها في هذا الكون وأودعها فيه، إنه بعض من صنع الله وإبداعه سبحانه، سوّاه وسخّره للإنسان، طالبًا من الإنسان أن ينظر فيه ويستجلي أسراره ويستقبل تأثيراته ويستمتع بمتاعه ويعتبر بعبرته: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام:٩٩).

وأينما يمّم الإنسان بصره أو بصيرته أو عقله أو قلبه، فإنه واجد آيات الله التي خلقها "زينة" للوجود ودعاه إلى النظر فيها: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾(الصافات:٦-٧).

فهذه "الزينة" التي هي آيات إبداع الله ﷻ هي "زينة-جمال"، يدعو الله الإنسان إلى النظر فيها، بل وكأنه يقول لنا، إن خلقها ليس "للحفظ" فقط ولا "للمنفعة" وحدها، وإنما "للزينة" التي أبدعها الله لينظر فيها الإنسان ويستمتع بما فيها من جمال. ومثال ذلك حديث القرآن الكريم عن آيات خلق الله التي أبدعها لنا في صورة "الحيوان" المسخّر للإنسان، فليست "المنفعة" المادية وحدها هي الغاية من هذا الخلق والتسخير، وإنما "الجمال" و"الزينة" أيضًا، غايات يتغياها الإنسان في هذا الخلق الذي خلقه الله: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(النحل:٥-٨).

النظر في الجمال هو امتثال لأوامر الله

إن هـذا الجمال وتلـك الزينة هي آيات الله، أبدعهـا وبثها في هـذا الكون، وأمر الإنسـان أن ينظـر فيها، فالنظـر في هذا الجمـال، والاسـتقبال لآيـات الزينـة، وفتح قنوات الإحسـاس الإنسـاني على صنع الله، هو امتثال لأمر الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾(ق:٦). وهذا النظر في هذه الآية وغيرها من الآيات، هو سـبيل من سبل الاسـتدلال علـى وجـود الله ﷻ وعلـى كمال قدرته وبديع صنعته. وما تعطيل النظر في آيات الجمال، إلا تعطيـل للدليـل على وجود الصانع المبـدع لهذه الآيات.

إن الجمال والزينة هـي آيـات الله، أبدعها وبثها في هذا الكون، وأمر الإنسان أن ينظـر فيهـا، فالنظـر في هـذا الجمـال، والاستقبـال لآيـات الزينة، وفتـح قنوات الإحسـاس الإنسـاني علـى صنع الله ﷻ هو امتثال لأمره.

فإن تنمية الإحسـاس الجمالي لدى الإنسـان المؤمن، هو تنميـة للملَكات والطاقات التي أنعم بها عليه الله ﷻ، وإن في استخدام هذه الملَكات، سبلا للاستمتاع بما خلق الله في هذا الكون من آيات الزينة والجمال، وصدق رسول الله ﷺ عندما قـال:"إن الله يحـب أن يرى أثر نعمته على عبده" (رواه الترميذي).

الجمال المؤدي إلى الكمال

إذن، كان المسلم -بحكم إيمانه وإسلامه- مدعوا إلى التخلّق بأخلاق الله ليكن ربانيًّا، ومطلوب منه أن يسـعـى -قدر الطاقة ومع ملاحظة فوارق المطلق عن النسـبي- كي يتحلى بمعاني أسماء الله الحسنى. فإن رسول الله ﷺ يعلّمنا أن "الجميل" هو من أسماء الله فيقول: "إن الله جميل يحب الجمال" (رواه مسلم). فالمسـلم إذن، مدعـو إلى الاتصال بالجمال الـذي هو البهاء والحسن في الفعل وفي الخلُق، وإلى تنمية إحساسه بالجمال الـذي أودعـه الله في الكـون؛ جمال الصور وجمـال المعاني على حد سواء، وفي ذلك "كمال" للإنسان و"سعادة" له أيضًا. يقـول الإمـام الغزالي: "فإن كمال العبد وسـعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى، والتحلي بمعاني صفاته وأسـمائه، بقدر ما يتصور في حقه، ليقرب بها من الحق قربًا بالصفة لا بالمكان، لأن اسـتعظام الصفة واستشـرافها يتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشـق لذلك الحلال والجمال، وحرص على التحلي بذلك الوصـف إن كان ذلك ممكنًا، أو يبعث الشوق إلى القدر منه لا محالة. وبذلك يصيـر العبـد ربانيًـا، أي قريبًا من الرب تعالى". (المقصد الأسنى)

الفطرة تمثّل التجمّل والتزين

ولأن هذا هو موقف المنهج الإسـلامي مـن آيـات الجمال والزينـة المبثوثة في الكـون مـن صفـات الحسـن والبهـاء المتاحة للإنسـان في هذه الحياة، كانت دعـوة القـرآن الكريم النـاسَ إلى اتخاذ الزينـة عنـد كل مسـجد، أي إلـى إقامة التـلازم وعقـد القران بيـن التزين وبين دعـاء الله والمثـول بين يديـه، فكلاهما (التزيين والصلاة) شكر لله ﷻ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْـجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّـلُ الآيَـاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:٣١-٣٢). نلحظ أن هذه الآيات تدعو الإنسان وليس المسلمين وحدهم، وذلك تنبيهًا علـى أن هـذا هو مقتضـى الفطرة التي فطـر الله الناس عليها؛ طلـب الزينـة والجمـال، وتصحيحًـا للانحراف الـذي جعل العبـادة رهبانية تدير الظهر لصفات الحسـن ومظاهر الجمال فـي هـذه الحياة. إنـه المنهج الإسـلامي الذي يعيد الإنسـان فـي هذه القضية وسـواها، إلـى "فطرته" والتـي يمثل التجمل والتزيـن ملمحًـا أصيـلًا مـن ملامحهـا، وفي حديث عائشـة رضي الله عنها، يقول رسـول الله ﷺ: "عشـر من الفطرة: قص الشـارب، وقـص الأظافر، وغسـل البراجم، وإعفـاء اللحية، والسواك والاستنشـاق، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء". (رواه النسائي)

وإذن، كان "المسـجد" فـي العرف الإسـلامي، هو مطلق مـكان السـجود، ولذلـك كانـت الأرض كلها مسـجدًا لأبناء الإسـلام. فـإن اتخاذ الزينـة هو فريضة إسـلامية في الأوقات الخمسـة التي يمثُل فيها المسلم -يوميًّا- بين يدي مولاه، أي إنها فريضة إسلامية في كل زمان -تقريبًا- وفي أي مكان.

وهذه الفريضة يتأكد التنبيه عليها في أيام وأماكن الاجتماع، كالجمع والأعياد.. وفي حديث رسول الله ﷺ: "من اغتسل -أو

تطهر- فأحسن الطهور، ولبس من أحسن ثيابه، ومس ما كتب الله له من طيب أو دهن أهله ثم أتى الجمعة، فلم يلغ ولم يفرق بين اثنين، غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى" (رواه ابن ماجة).

الزينة التي يطلبها الإسلام

ولا يحسبن أحد أن "الزينة" التي يطلبها الإسلام ويأمر بها، مقصورة على الثياب الحسنة والطيب وحسن التجمل -فقط- عند المثول بين يدي الله في الصلاة، ذلك أن "الزينة" إذا كانت اسمًا جامعًا لكل شيء يُتزين به، فإن مصادر طلبِها ومواطن الإحساس بها، مبثوثة في كل آيات الجمال التي خلقها الله، وأبدعها وأودعها في سائر أنحاء هذا الوجود.

ولقد ميز الإسلام ما بين طلب الجمال والاستمتاع به عندما يحكمه الاقتصاد والاعتدال وعندما يكون شكرًا لأنعم واهب هذا الجمال، وبين "الكبر" الذي نهى عنه الإسلام وتوعد مقترفيه. فعندما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه ابن مسعود رضي الله عنه: "لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر"، عند ذلك قال رجل: يا رسول الله إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلًا ورأسي دهينًا وشراك نعلي جيدًا -وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه- أفمن الكبْر ذلك يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: "لا، ذلك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبْر من سفه الحق وازدرى الناس" (رواه مسلم).

ولقد أباح الإسلام للمرأة أن "تتجمل للخُطّاب" إظهارًا لنعمة الجمال وطلبًا للزواج. وفي حديث الصحابية الجليلة سبيعة بنت الحارث الأسلمية رضي الله عنها، عندما توفي عنها زوجها سعد بن خولة، ووضعت حملها منه وبرئت من نفاسها "تجمّلت للخُطّاب"، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك -من بني عبد الدار- فقال لها: "مالي أراك متجمّلة، لعلك ترجين النكاح؟! إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. فذهبت سبيعة إلى رسول الله ﷺ وسألت عن ذلك -عن العدّة- وليس عن "التجمل للخُطّاب" فلم يكن ذلك موضع خلاف. قالت: فأفتاني رسول الله ﷺ بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي" (رواه مسلم).

ووجدنا القرآن الكريم يتحدث عن زينة الأرض وزخرفها كمهمّتين من مهام خلافة الإنسان عن الله في عمرانها، لن تنتهي هذه الخلافة بطيّ صفحة هذه الحياة الدنيا، إلا إذا بلغ الإنسان الشأو في هذا السبيل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(يونس: ٢٤).

الاستشعار بآيات الجمال

ولقد كان منهج النبوة الذي تجسد في سلوك الرسول ﷺ في خاصة نفسه، ومع أهله، وفي تشريعه للناس.. كان هذا المنهج بصدد التربية الجمالية والسلوك الجمالي، البيان العملي والممارسة التطبيقية للبلاغ القرآني الذي شرع الله فيه منهج الإسلام في هذا الميدان. فهذا الرسول ﷺ الذي جاء رحمة للعالمين، كان النموزج الأرقى للإنسان الذي يستشعر كل آيات الجمال في خلق الله، ويلفت النظر بهذا السلوك الجمالي، ليغدو سنة متبعة في مذهب الإسلام وحضارة المسلمين.

لم يكن الرسول ﷺ مترفًا ولا "مستغنيًا"، ولكن الله قد أغناه عن الحاجة بعد أن كان فقيرًا عائلًا: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾(الضحى: ٨)، لم يكن "الراهب" الذي يقيم الخصام بين مملكة الأرض ومملكة السماء، ولا "الناسك نسكًا أعجميًا" الذي يدير ظهره للدنيا وطيباتها، إنما كان يقبل الهدية، ويهدي إلى الناس، وكان يتصدق دون أن تتطلّع نفسه أو تمتد يده إلى شيء من الصدقات.. كان له من المال ما يكفيه وأهله، كإمام للدولة، وبمقاييس بساطة تلك الدولة ودرجتها في ذلك الزمان وذلك المكان.. كان المال في يده، ولكنه لم يستول على قلبه في يوم من الأيام.

ونحن إذا شئنا أن نتلمس في سيرته -في خاصة نفسه- نماذج شاهدة على رقيّه وارتقائه في السلوك الجمالي والإحساس بالجمال، إننا واجدون الكثير..

يروي ابن عباس رضي الله عنه فيقول: كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطير، ويعجبه الاسم الحسن (رواه الإمام أحمد). والذين يتأملون هذا السلوك -في ضوء قضيتنا- يدركون أن التفاؤل إنما هو ثمرة لرؤية إيجابيات الواقع وجماليات المحيط، وهو ضد التشاؤم الذي لا يرى صاحبه سوى القبح والسلبيات، وأيضًا هو غير السذاجة التي لا يبصر صاحبها لا الإيجابيات ولا السلبيات. فالتفاؤل موقف إيجابي من جماليات الحياة

> **المسلم مدعو إلى التخلّق بأخلاق الله ليكن ربانيًّا، ومطلوب منه أن يسعى كي يتحلّى بمعاني أسماء الله الحسنى، إنه مدعـو إلى الاتصال بالجمال الذي هو البهاء والحسن في الفعل وفي الخلُق، وإلى تنمية إحساسـه بالجمال الـذي أودعه الله في الكـون؛ جمـال الصـور وجمـال المعاني على حـد سواء.**

وإيجبيات المحيط.

"ولا يتطير"، لأن المتطير هـو الـذي لا يـرى مـن الأشـياء إلا جانب القبـح والشـؤم، على حيـن أن في هذه الأشـياء -كل الأشياء- من وجوه الخير والجمـال ما يطرد التطير والتشـاؤم عن الذين يبصرون هذا الخير وهذا الجمال.

"ويعجبه الاسـم الحسن"، أي إنه ﷺ قد بلغ في استشـعار آثار الجمال إلى الحد الذي جعله يلمحها حتى في الأسـماء. فهـو يـدرك أثـر "العنـوان" فـي الدلالة والإيماء إلى "المضمون والموضوع".

ثـم أيّ رقـي في الجمـال والتجمل يبلغ ذلك الذي تحدّث عنه خادمه أنس بـن مالك ﷺ، عندما وصف هذا الجانب من حياته فقال: "ما شـممت عنبرًا قط ولا مسكًا ولا شـيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مسسـت قط ديباجًا ولا حريرًا ألين مسًّـا من كف رسول الله ﷺ، كان أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ" (رواه مسلم).

تـرى، هـل هنـاك فـي الجمـال والتجمل أرقـى من ذلك الذي كان، كأن عرقه اللؤلؤ"؟! هذا هو رسـول الله، جسّـد في عشـقه للجمال وارتقائه على دربه، منهجَ الإسـلام في التربية الجمالية. فكانت حياته -في خاصة نفسه- التجسد لسنته التي علمنا إياها عندما قال: "إن الله جميل يحب الجمال".

الاستمتاع بجماليات الحياة

أمـا "سـيرته الجمالية" فـي أهله فإنهـا هي الأخـرى، نموذج للجمـال الراقي وللرقي الجمالي، تدهشـنا اليوم بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا. فما بالنا إذا تصورناها في ذلك التاريخ؟!

وهـذا هـو النبي الـذي يأتيـه الوحـي، ويبلّغ رسـالة ربه، ويقود الدولة، ويرعى الأمة، ويكاتب الملوك، ويقاتل صناديد الشـرك، وينهـض بتغييـر وجه الحيـاة علـى الأرض.. إنه ﷺ يمـارس "السـباق" مـع زوجته عائشـة أم المؤمنين رضى الله عنها، وأين؟ ليس سرًّا وراء الجدران والأبواب المغلقة، وإنما في الطريق وهم مسافرون.

تـروي عائشـة رضي الله عنهـا حديث هـذا الخلُق الراقي فـي الاسـتمتاع بجمال الحياة، وفي الأخـذ بحظه من طيباتها فتقـول: خرجـت مـع النبي ﷺ في بعض أسـفاره وأنـا جارية لـم أحمـل اللحـم ولـم أبـدن، فقـال للنـاس: "تقدمـوا"، فتقدمـوا، ثـم قـال لـي: "تعالي حتـى أسـابقك"، فسـابقتُه فسـبقتُه.. فسـكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجت معه في بعض أسـفاره، فقال للنـاس: "تقدموا"، فتقدموا، ثم قال: "تعالي حتى أسابقك"، فسـابقتُه، فسبقني.. فجعل يضحك وهو يقول: "هذه بتلك" (رواه الإمام أحمد).

إننـا نسـوق هـذا الطرف من سـيرة رسـول الله ﷺ لا لنعجـب أو نسـتدر العجـب، وإنمـا لنقـول: إن هـذا هـو المنهـج الطبيعي والوحيد للإسـلام في علاقة المسـلم بجماليات الحياة، منهج ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِـنْ كَمَا أَحْسَـنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾(القصص:٧٧). ولقد أحسـن الله إلينا بآيات الجمال التي زين بها كل ما في الوجود.

والإحسـان المقابل هو أن نحسـن الاسـتقبال لهذه النعم الإلهيـة، ونرتقـي بقنـوات وأدوات وحـواس استشـعارها والاستمتاع بها شكرًا له على ما أنعم، وإقامة للتوازن والوسيطة الإسـلامية التي وإن أنكرت الترف والإسـراف في الملذات، فإنهـا تنكـر الرهبانية ونسـك الأعاجـم وإدارة الظهر لطيبات الحيـاة. إنـه المنهج الذي يعلّمنا أن كل عمل يرتقي بإنسـانية الإنسـان حتـى مـا كان منه "لهوا" يـروّح عن النفـس، و"لذة" حلالا، فهـو "عبادة" لله، يستمتع بها الإنسان في دنياه، وتكتب له بها الحسـنات التي يوفاها في أخراه. يقول رسـول الله ﷺ: "عجبـت مـن قضاء الله ﷻ للمؤمـن، إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته" (رواه الإمام أحمد).

إنـه منهـج العشـق الحـلال للطيـب مـن آيـات الجمال، ينفـي -بل يسـتنكر- ذلـك التجهم الذي يفتعـل الخصام بين المسـلمين وبين طيبات وجماليات هذه الحياة. فالمسـلم لن يستطيع أداء فريضة الشكر لله على نعمة الجمال، إلا إذا عرف واستمتع بأنعم الله ﷻ في هذا الجمال. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

هارولد ألسيس*

اعتماد الأسباب في أي أمر من أمور الإنسان دعاء فعلي. وكلما كان هذا الاعتماد مستوفيًا للشروط كان أقرب إلى الله تعالى وأدعى إلى أن تتفتح له أبواب السماء، وتنهمر شآبيب الرحمة والتوفيق.

* * *

المُبتَلون في الأرض

"الكل في الجنة فرح، وفي النار حزن.. الدنيا تأتيني أحيانًا طائعة، وأحيانًا تأتيك.. لذلك فإننا نعيش وجودنا ونتشاركه بين نقيضين". (بالتزار كراسيان)

يأتي على الإنسان المتبصر والمتيقظ حين من الدهر يرى بداهة سير الحياة بدون حُجب. فيرى أن الحياة في كنهها ليست مثالية كما يعتقد، بل هي واقع مرير وحلو حيث وثوق ارتباط البلاء بالهناء كارتباط المادة بضدها. وعلى أعقاب هذه الملاحظة، فإن العديد من البشر قد يجد نفسه يتدبر السؤال الخالد رغم بساطته: "لماذا

تقع أمور سيئة على أناس طيبين؟".

لقد بذل العديد من الفلاسفة جهودهم للوصول إلى تفسير هذه المفارقة التي تبدو قاسية. ولعلك واحد من الذين يتدبرون سبب البلاء الذي أصابهم وهم طيبون ولا يثورون للتو، إنما يتقبلون ذلك الابتلاء ويتعاملون معه وكأنه أمر عادي يمكن أن يتجلى في حياتنا وحياة أحبابنا دائمًا.

يشترك المؤمنون وغير المؤمنين في تساؤلهم حول ما إذا كانت الطبيعة في تعاملها مع الإنسان تشكل أكبر عدو له، وفي تساؤلهم حول معاقبة الله لنا حالَ تجاوزنا الحدود التي وضعها. قد يكون الجواب على هذين التساؤلين هو "لا". ولكن هناك رجال ونساء مرموقون نظّروا لهذا الشأن. فقد كتب "رالف والدو إميرسون": "ليست الطبيعة بالحنون ولا هي بالمُدلّلة، الواجب أن نرى في الحياة كدحًا وكبدًا، فهي لا تني في أن تذهب برجل أو امرأة، بله تبلع سفينتك مثل حبة من الغبار". لا تعمل قوانين الطبيعة وفقًا لمنطق الانتقائية. فقد شهد التاريخ، أمثلة كثيرة عن موت الخيّر والشرير بسبب الوباء أو الكوارث الطبيعية أو حتى بسبب لدغة حية أو مخلب حيوان. وحتى المتقون حقًا لا يسلمون من المعاناة، كما تشهد قصة أيوب ﷺ في الإنجيل والكتب المقدسة الأخرى على ذلك. لقد كان النبي أيوب ﷺ رجلا ورعًا ومستقيمًا، يخشى الله وينأى بنفسه عن كل شر، إلا أنه ابتلي كثيرًا وما تألّى على الله أو تسخط مما أصابه، بل صبر واحتسب وقال: "خلقت عاريًا وسأبعث عاريًا، الله هو المعطي وهو المانع. تبارك اسم ربي". إن ما يجب أن يوضع في الاعتبار -حقيقة- هو أن هذه الدنيا ليست الجنة، وأن قوانين الكون لا تميز فيما بيننا، بل تفعل فعلها فينا جميعًا.

إن المسألة لا تتعلق بسؤال "لماذا تقع أمور سيئة على أناس طيبين؟" بقدر ما تتعلق بسؤال "ماذا يمكنني أن أفعل من أجل العيش الأفضل في ثنايا البلاء، وكيف يمكنني طمأنة زملائي في أوقات المحن". وقد كتب الفيلسوف الألماني "أرثور شوبنهاور" في إحدى المرات بأن "البلاء ليس استثناء، بل هو قاعدة تطبّق على العموم". ونحن يمكننا معالجة هذه القاعدة والتفاعل معها من خلال مساعدة الآخرين وبعدم الاستسلام للبلاء.

مكابدة المحن

ليست الطريق في الحياة الدنيا ودار الابتلاء مفروشة بالورود، بل هي مليئة بالحوادث الأليمة. والعجيب هو أن هذه الحوادث هي التي تكون في غالب الأحيان سببًا في تكوين شخصيتنا الرائعة وإنضاجها. ولعلنا نعتبر مقولة "نيتشه" المأثورة: "ما لا يقتلنا يجعلنا أقوى" واحدة من ضمن المقولات النموذجية التي قد تساعدنا على تخطّي عقبة المحن. كما أنه من المفيد، التأمل في هذا الكم الهائل من أولئك الذين استطاعوا تحويل الألم والمعاناة إلى وسائل خيرة لتغيير أنفسهم ومجتمعاتهم، أو التأمل في أولئك الأخيار الذين قضوا نحبهم في الحروب، في سبيل الحصول على الحرية أو من أجل تحسين ظروف عيش الآخرين باستئصال القمع، أو أولئك الأخيار الذين ألهمونا القوة والأمل رغم معاناتهم من المرض والعلل، وكذلك التأمل في الناس الطيبين حولنا ومعاناتهم، وكيف يمكن أن نصبح إنسانًا فاضلاً بمساعدة هؤلاء على التغلب على آلامهم.

وقد توضح تجربتي الشخصية مع المحن، ما سبق الحديث عنه حول: كيف يمكن لحوادث أليمة أن تحوّلنا إلى أناس أفضل، ولذلك لا ينبغي أن نسمي البلاء "شرًا"، بل ينبغي أن نسميه "خيرًا" إذا أحسنّا استثماره.

نحو عقد من الزمن عانيتُ من إصابةٍ سببت لي حرمانًا أبديًا من استخدام حوالي ثمانين في المائة من جسدي، وأرغمتني على استعمال كرسي متحرك. وقد بدا لي حينها، أن الحادث الذي أصابني، كان حادًّا لدرجة مفجعة، لا سيما وأنني كنت في العشرين من عمري، قويًا وقادرًا على كل شيء. وفجأة أصبحت مشلولا من نصف صدري إلى أسفل قدمي، فأحدث لي هذا الابتلاء شللا نصفيًا. بدأتْ أسئلة تتبادر إلى ذهني من قبيل: هل كنت شخصًا طيبًا قبل إصابتي بهذا البلاء؟ نعم، طيبًا بما فيه الكفاية. وهل أنا أفضل الآن؟ لا. كنتُ أسمع في المستشفى صدى كلمات "هاريت ستو" تتردد في ذهني: "لا تستسلم، فإنما هما مجرد مكان وزمان سيأتي بهما المدّ" وقد عاد المدّ فعلا. فتحولتْ حالتي المزرية إلى بداية جديدة ميمونة.

يوجد بداخل معظمنا شخص أفضل، لكنه مُقيد وراء ستار شخص سيء غير مبالٍ، ثم إنه بالنسبة لي، فلم



> **إن التغلب على البلاء لا يكون إلا بحسن تقديره واستثماره، عندئذ يمكن للواحد منا أن يستمر في سيره بدون تعثر ولا عائق، فضلاً عن أنه يمكننا أن نتحوّل إلى أناس ناضجين بفضل البلاء، أو قد نساعد أناسًا آخرين على الخروج من معاناتهم بعدما نكون قد تغلبنا على معاناتنا.**

ولن تكون مسألة "لماذا تقع أمور سيئة على أناس طيبين؟" سارية المفعول، لأنني لا أراها كذلك بسبب إدراكي أن "كل نقمة في طيّها نعمة"، وهذا ما غيّر وجهة نظري إلى الحياة نحو الأحسن. معظمنا يعتقد أن البلاء حدث "سيء"، فينخرط بالتفكير فيه أكثر من اللازم، ويزيد في استفحال سوء البلاء، ويغرق -عن غير قصد- في سلبيات قد تترتب عليها بلايا أخرى، يتأسف على كونه كان طيبًا، ثم إنه -عن جهل- يبدأ يلوم القدر، ويلوم العالم، ويلوم الأقرباء.. إننا بحسن قبولنا للبلاء، وبحسن تقديرنا للمصائب والآلام -مع علمنا أنها سوف تتقلص وتتبدد لا محالة- نكون قد سرَّعنا الشفاء وعُدْنا إلى مسار حياتنا الطبيعي بكل سهولة وبكل يسر.

القدر المكتوب

ولنتذكر جيدًا أن البلاء والمحن التي تصيبنا تتفاوت في الدرجة، والمسألة هنا ليست متعلقة بالمهانة أو التكريم. هناك بالتأكيد مَن سيموت، أما القدر -تلك القوة الممتنعة عن أي محاولة للتوقع- فواقعٌ كما هو مكتوب ولو اجتمعت البشرية على تغييره وتبديله.

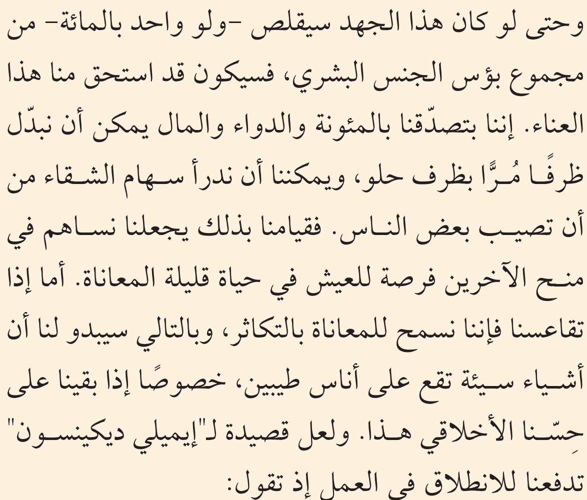
لقد عبر عن ذلك "سوفوكليس" منذ زمن بعيد قائلا: "رهيبة هي قوة القدر الغامضة، لا ينفع للخلاص منها لا الثروة ولا الحرب، لا البروج المحصنة ولا السفن التي تقهر البحار المظلمة". الناس هم وحدهم المسؤولون عما يقع عليهم جراء جهالتهم. ثمة فرضية لم يرد ذكرها حتى الآن، تقول بأن الناس الطيّبين مسؤولون عما يقع في مصيرهم بسبب سوء تصرفهم أو تقاعسهم، ولذلك لا ينبغي أن نرى دائمًا في تقلبات الحياة مفاجآة أو شيئًا معاندًا.

دَعونا نفترض للحظة أن أناسًا يعيشون حياتهم وكأنهم المثل الأعلى للاستقامة، فهم محسنون وطيبون ومتواضعون وأصحاب أخلاق رفيعة في جلّ حركاتهم، أي إنهم كالملائكة. والآن لنسلم -جدلا- أنهم لا يتبعون نظامًا غذائيًا صحيًا، وأنهم يدخنون بكثرة، ولا يمارسون الرياضة، ويقومون بجميع التصرفات المتهورة التي قد تؤثر بمصائرهم، ثم فجأة يكتشفون أنهم قد أصيبوا بسرطان الرئة أو داء السكري أو مرض من أمراض القلب والشرايين. ولنفترض أنهم سيموتون قريبًا، فهل من حقّنا أن نعتبر هذه الأشياء "السيئة"، أيْ المرض والموت المفترض، كأشياء سيئة تحدث إلى أناس طيبين؟ أليس من الجهالة التفكير بهذا المنطق؟ لقد قادتهم خياراتهم هذه إلى إصابتهم بسهم المرض. وفي مثالنا هذا، كان يمكن للوضع أن يكون مغايرًا لو كانت تلك التصرفات أقل تهورًا. وهذا لا يعني أننا يجب أن نلوم الناس على خياراتهم في الحياة، لكن في المقابل، يجب علينا أن ننصحهم ونحثهم على تجنّب التصرف المُرّ ونساعدهم في ذلك.

اقتحام العقبات

قد يكون لعدم الاكتراث أو التقاعس عن الحركة، نتائج فتّاكة. فالإحسان والأعمال الخيرية -مثلاً- يصدران عن أناس يشاطرون الناس أحاسيسهم. وهكذا لو افترضنا أن هؤلاء المحسنين لم يعودوا يكترثون، وأوقفوا تبرعاتهم بالمال والوقت، أي تقاعسوا، فيا ترى كم سيصبح عدد أولئك الطيبين الفقراء الذين يعانون؟ إننا بتعاضدنا وتضامننا، يمكن أن نُحسّن من ظروف عيش أولئك الذين يعانون،





وحتى لو كان هذا الجهد سيقلص -ولو واحد بالمائة- من مجموع بؤس الجنس البشري، فسيكون قد استحق منا هذا العناء. إننا بتصدّقنا بالمئونة والدواء والمال يمكن أن نبدّل ظرفًا مُرًّا بظرف حلو، ويمكننا أن ندرأ سهام الشقاء من أن تصيب بعض الناس. فقيامنا بذلك يجعلنا نساهم في منح الآخرين فرصة للعيش في حياة قليلة المعاناة. أما إذا تقاعسنا فإننا نسمح للمعاناة بالتكاثر، وبالتالي سيبدو لنا أن أشياء سيئة تقع على أناس طيبين، خصوصًا إذا بقينا على حِسّنا الأخلاقي هذا. ولعل قصيدة لـ"إيميلي ديكينسون" تدفعنا للانطلاق في العمل إذ تقول:

لو استطعتُ أن أمنع قلبًا من التمزّق
فلن أعيش بلا جدوى
لو استطعتُ أن أخفف من معاناة أحد
أو أن أُخفّف من ألم
أو أن أساعد طائرًا واهنًا إلى عشّ
فلن أعيش بلا جدوى

إن التغلب على البلاء لا يكون إلا بحسن تقديره واستثماره، عندئذ يمكن للواحد منا أن يستمر في سيره بدون تعثر ولا عائق، فضلاً عن أنه يمكننا أن نتحوّل إلى أناس ناضجين بفضل البلاء، أو قد نساعد أناسًا آخرين على الخروج من معاناتهم بعدما نكون قد تغلبنا على معاناتنا، وبالتالي نكون قد قلّلنا من فرص وقوع أحداث مريرة.

لا شيء يقع بدون علة وحكمة بما في ذلك البلاء، وإذا أحسنّا الظن بربّنا وأقررنا بأن الألم والأسى سوف ينتهي بالضرورة إلى نتائج حميدة، فلن تضرّنا المصائب والبلايا أبدًا. ■

(*) كاتب ورسام / الولايات المتحدة الأمريكية. الترجمة عن الإنكليزية: هشام الراس.

الغربة

مسحةَ أسى، ولوعةَ حزن، وغربةَ روح،
على وجهك رسم القدر...
أنا وأنت عشيقا غربة، وخَدِينا بعاد وضنَى...
يا غرباء الروح، أنتم في هذه الغربة ساكنون،
متى تئنّون، والدمعَ تسفحون؟!
لو فعلتم، لأطلَّ الربيع،
وتساقطت السماء وردًا وعطرًا،
واخضرَّ الوجود، وحلَّ الربيع الموعود...

* * *



أ.د. وهبة الزحيلي*

العمل الخالد

في ثقافة البناء

من المعلوم تاريخيًا وحضاريًا ووجوديًا وفاعلاً حيويًا، أن الإسلام دين العزة والمجد والبناء الفردي والمجتمعي، وأنه رسالة النهضة الشاملة للعلم والثقافة والمدنية والحضارة وبناء الإنسان والأمة والمجتمع. فهو رسالة خالدة على مدى الزمان، لإنقاذ الإنسان وتنمية المجتمع والدولة تنميةً ثقافيةً وعلميةً، ولإسعاد الفرد والجماعة، وتعبر عن ذلك الآية القرآنية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤). والإحياء -بالمعنى العام- هو الشامل للوجود الرفيع في جميع أطياف الحياة؛ المدنية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

هذه مبادئنا وإرشادات قرآننا وسنة نبينا ﷺ، وستظل منادية في كل زمان ومكان، أن الإسلام هو طريق الحياة الصحيحة والقويمة في عالم الغيب والشهادة، وفي الوجود الدنيوي والأخروي، سواء حقق المسلمون هذه المبادئ أم تخلّفوا وغفلوا عنها، لأن الصحوة أو اليقظة لابد من الصيرورة إليها، بعد الشعور بالمشكلات أو الوقوع في الغفلات والأزمات.

ويهيئ الله تعالى في كل زمان ومكان، مَن يوقظ الأمة ويعمل على تصحيح رسالتها، ويحقق تطلعاتها بأساليب مختلفة. فقد تتوافر الفرصة لقائد فذّ يقود الأمة بحكمة وحزم، وقد يقوم مصلحون بهذه المهمة فيعمل بصمت وتخطيط لإنقاذ الأمة وتحقيق الطموحات المنشودة والتطلعات الرشيدة. ولا شك بأن مصدر الأعمال العامة، إنما هو الإيمان المستنير، والإرادة الفولاذية، والعزيمة القوية، والفكر والعقل الذي يتأمل صاحبه في آفاق الحياة، فيندفع إلى التخطيط والتنفيذ والعمل الجبار بكل إخلاص ومصداقية، لا همَّ لرجالاته إلا رضوان الله ﷻ وصناعة التاريخ.

وفي طليعة هذا كله، نجد في تركيا مثَلين فريدين في توعية الأمة وصمودها في وجه التحديات -الصادرة من أناس يكيدون للإسام وأهله- يعملون على تحقيق طموحات في بناء الأجيال والمستقبل المشرق الوضاء.

أول هذين المثَلين، هو العلامة الملهم المفكر الأستاذ بديع الزمان "سعيد النورسي" -رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه- الذي ملأ الساحة العلمية والفكرية والاجتماعية، بفلسفته العميقة النابعة من أصول الإيمان والإسلام، فعلّم وأرشد، ونبّه وأيقظ، وخطط فأنجح، وسرت تعاليمه في عقول الآلاف المؤلفة من شعب تركيا، وأغنى الساحة بمؤلفاته "رسائل النور" الجامعة لكل متطلبات الحياة الصحيحة والمسيرة الظافرة.

والمثَل الثاني، إنما هو الرجل المخطِّط والمنفِّذ لكل خطة، ألا وهو الأستاذ "فتح الله كولن". فهو -كما لمستُ من آثاره القيمة وتوجيهاته الهادئة- وراء كل عمل خيّر عظيم، وفضل عميم في نفع أمته، وبناء شخصية الجيل والشباب، بطاقات عملية وأنشطة حيوية مفيدة جدًا ورائعة، شملت أنحاء الحياة كلها؛ الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمعرفية والعملية الهادفة، المتميزة بالحركية الفاعلة، والديمومة الناجحة من معين الإسلام الخالد. لا أذكر هذا على سبيل الإشادة والمديح، وإنما ألقي الضوء على خطوات النجاح في العمل الدعوي الإسلامي الذي يعد أنموذجًا ليستفيد منه الآخرون. فهذان الرجلان قدوة عملية طيّبة في الوقت الحاضر والمستقبل.

فالإسهام من نخبة متميزة تعمل في حقل التوجيهات العملية التي تنبع من أصول الإسلام وإرشاداته، حقّقت الكثير من النجاحات في تقدّم المجتمع التركي المسلم وغيره، بجميع أطيافه وفئاته منذ ستين عامًا. أما الإسهام العلمي "لشباب الخدمة" في تركيا -محبّي الأستاذ- فهو رائع ومتميز، حيث أشادوا في البلاد غير التركية أكثر من ألفي مدرسة، بالإضافة إلى إقامتهم في تركيا المدارس بدءًا من دور الروضة أو الحضانة إلى المدارس الإعدادية والثانوية والجامعية في الاختصاصات العلمية؛ من فيزياء وكيمياء وطب وحقوق وتربية وغيرها...

ويعقدون المؤتمرات العلمية الناجحة التي يدعى إليها كبار العلماء من مختلف البلاد الآسيوية والإفريقية. وفي ٩-٢٠١٠/١٠/١٥ عُقِد مؤتمر عن "هَدْي خير العباد"، لبيان مكانة السنة النبوية وأهميتها وكونها المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، وحقق نجاحًا عاليًا بالبحوث التي قدّمها علماء غير أتراك وعلماء أتراك؛ من عمداء وأساتذة كليات الإلهيات. وهم -في الواقع- على دراية عميقة وسليمة في تخصصاتهم.

إن هذه الأنشطة الحساسة والمهمة كلها، تعبّر عن فكرٍ بنّاء وتخطيطٍ مستقبلي محكم، ومنها إصدار العديد من المجلات كمجلة "حراء"، ولديهم مركز إعلامي شامخ، تطبع فيه جريدة "زمان"، وتصدر قرابة المليون في طبعاتها اليومية، وكذلك المجلات بلغات أجنبية؛ إنكليزية وألمانية وروسية وغيرها...

أما شباب الخدمة، فهم في حركة دائمة ونشاط لا يعرف الفتور مع الإخلاص والتواضع والأدب الجم والخلق الرفيع والزهد والعفة. أما كرمهم فحدث -ولا حرج- عن سخاء عظيم، فهم إن أهدوا أجادوا، وإن قدموا شيئًا أفاضوا، فهم من أكرم وأسخى وأفضل الناس. فقد حضرتُ زهاء مائتي مؤتمر، فلم أجد مثل مكارم تلاميذ الأستاذ فتح الله كولن أطال الله في عمره.

وأقول باختصار: "إنهم رسل الخير والدعوة والإنسانية". ■

(*) جامعة دمشق، كلية الشريعة / سوريا.



أ.د. عبد الحليم عويس*

رحلة الصعود الملائكية

ما أصعب أن تنخلع من ذاتك البشرية، وأن تتصل بإخوانك المؤمنين من الجن الذين قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢). وكذلك ما أصعب أن تتصل بإخوانك من الملائكة الذين ستلتقي بهم إن شاء الله في الجنة.

إنني -بعون الله- قد أستطيع تمثّل مشاعر إنسان مثلي، وقد أعيشها بكل قلبي فأنجح بنسبة كبيرة، أما أن أتمثّل مشاعر الملاك جبريل ﷺ في هذا اللقاء الأخير، بعد رحلة دامت ثلاثة وعشرين عامًا، كان فيها دائم التواصل مع حبيبه وحبيب الكون كله، الرحمة العالمية للعالمين محمد بن عبد الله ﷺ. أما أن أصل إلى هذا المستوى فذلك صعبٌ جدًا. حقًا، لقد كانت مشاعر الرسول محمد ﷺ توحي له بأن هذه اللقاءات هي آخر اللقاءات على الأرض مع جبريل ﷺ ومع وحي الله ﷻ. ومع أن مشاعره لا يمكن أن تكذبه أبدًا، إلا أن ثمة نسبة بشرية بقيت فيه، تؤكد أن رسول الله محمدًا ﷺ لا يعلم الغيب حتى وإن أحسَّ به، وحتى لو اتجهت مشاعره في اتجاه هذه الوقائع المستقبلة.

أما حالة جبريل ﷺ فتتمثل في أنه كان يعلم -بما علمه الله ﷻ- أن هذا هو اللقاء الأخير. ولو كان جبريل ﷺ بشرًا مثلنا، لنزلت منه الدموع غزارًا، وعجز أن يكبت مشاعره أو يكبح جماحها من فراق الرسول ﷺ. يؤكد هذا ما ذكره أحد الصحابة ﷺ أن المدينة (يثرب) عندما دخلها رسول الله ﷺ أضاء منها كل شيء، وعندما توفي أظلم فيها كل شيء.

لقد كانت الحياة سيعُمّها السواد أمام جبريل ﷺ لو كان

بشـرًا، فالسواد من رؤيتنا ومن مشـاعرنا وعواطفنا وليس من البيئة الخارجية المحيطة بنا.

لكن الحالة التي كان يعيشها جبريل هي أنه لا يستطيع أن يتمثل (بشرًا سويًا) بالمشاعر الإنسانية الضعيفة والعاطفية. فلذلك بدا متماسكًا وكأنه لا يعيش اللقاء الأخير والأيام الأخيرة مع رسـول الله ﷺ الذي كان يزوره في الليل والنهار، بعد أن يقطع ملايين الأميال ومئات السنوات الضوئية.

لكـن هذا المظهـر الوقور والثابت من جبريل ، وعدم اطلاع الرسـول ﷺ على علم الغيب، كلاهما لم يكونا كافيين لصرف مشاعر الرسول ﷺ عن إدراك أن الأمر ليس عاديًا، وأن هـذه اللحظات ربما تكون الأخيرة في لقاء السـماء بالأرض، وجبريـل بمحمد عليهما السـلام. يؤكد هذا الإحسـاس لدى الرسول ﷺ ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهمـا أنـه قال: "وكان رسـول الله ﷺ أجـود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارسه القرآن، فَلَرسُول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة".

لكن هذه المدارسـة التي كانت تتكرر مرة واحدة في كل عام في ليالي شـهر رمضان المبارك، تكررت في رمضان من السـنة الحادية عشـرة من الهجرة مرتين. فقد جاء في صحيح البخـاري عن فاطمة الزهراء رضي الله عنها قالت: "أسـرَّ إليَّ النبـي ﷺ أن جبريـل يعارضنـي بالقـرآن كل سـنة وأنـه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي". فهكذا صرّح الرسول بشعوره باقتراب أجله.

ومعـروف أن "المعارضـة" تعنـي "المدارسـة"، فأحدهما (جبريـل أو الرسـول ﷺ) يقـرأ والآخـر يسـتمع، وذلك تأكيـدًا لحفـظ القرآن وتنبيهًـا على أن الرسـالة آذنت بانتهاء، وتحقيقًـا لوعود الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩).

فالقـرآن الكريـم كلـه -جملة واحدة- راجعـه جبريل مع رسـول الله عليهمـا السـلام، ولعل آخـر القرآن نـزولا -عند بعض المفسـرين- هي آيات الربا من سـورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُـوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِـنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ۞ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِـرَةٌ إِلَى مَيْسَـرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُـمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٧٨-٢٨١).

الأيام الفاصلة في تاريخ الإنسانية

إنها بحق أعظم الأيام الفاصلة في تاريخ الإنسـانية. لقد دأب مؤرخـو الإنسـانية إلـى تقسـيم مراحـل التاريخ إلـى عصور، وربمـا إلـى مواقع عسـكرية أو أزمات إنسـانية، وربما أعطى بعضهـم للحروب العالمية وإلقاء أمريكا بقنبلتي "هيروشـيما" و"نجزاكـي" دورًا فـي هـذا التقسـيم. لكـن هذه التقسـيمات مرتبطة بظروف مادية، بعيدة كل البعد عن النظر إلى التطورات الروحية والعلمية والأخلاقية للإنسان، وهي تطورات حيوانية أكثر منها إنسانية.

أما ما وقع في هذه الأيام التي راجع فيها جبريل ورسـول الله عليهما السـلام القـرآن الكريم مراجعة أخيـرة، كي يكون بحـق فـوق أي تحريف أو تزويـر، وبحيث ﴿لاَ يَأْتِيـهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فصلت:٤٢)، وما وقع في هذه الأيام، فهو منعطف حاسم لطريق جديد في تاريخ البشرية كله، وهو الدخول في عصر جديد، له خطورته الخاصة ومعالمه الأساسـية بالنسـبة لمسـتقبل الإنسانية. إنها المعالـم التـي تتجلى فـي الحقائق التالية التي فرضت نفسـها على الإنسانية وهي:

أولًا: لقـد انتهـت آخـر الكلامـات الإلهيـة الموجهة إلى الأرض، فلا وحي بعد اليوم.

ثانيًـا: لقد نزل إلـى الأرض عبـر التاريـخ، آلاف الأنبياء والرسل، ولا إرسال للأنبياء والرسل بعد اليوم، ومحمد ﷺ هو "خاتم الأنبياء". وعلى البشرية أن تقرر مستقبلها، وأن تقبل هذا "الوحـي الخاتم" وهذا "النبي الخاتم" الذي قدم للناس -قولا وفعـلا- قرآنًا يمشـي علـى الأرض، وطلب منهـا أن تعتمده كآخـر طبعة مـن الوحي، تهيمـن على كل ما نـزل قبل ذلك.

ثالثًـا: لقد انقطع نـزول الملائكة من ذوي الشـأن وحملة الرسالات، فلا نزول لجبريل إلى الأرض بعد اليوم، ولن ينـزل إلى الأرض إلا ملائكة مكلفـون بوظائف محددة، لكنه ليس مأذونًا لهم بمخاطبة الناس. فقد انقطع الكلام بين الملائكة والإنسـانية فـلا كلام بعد اليـوم. وحتى ملك المـوت يؤدي مهمّته في إنهاء حياة الناس، بطريقة سرية لا يعلمها إلا الله ﷻ.

رابعًـا: لقـد وكّل الله ﷻ رسـوله ﷺ أمر تبليـغ الوحي إلى الناس العاديين الذين جعلهم الله ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

-بعـد الأنبيـاء- وجعلهم ﴿شُـهَدَاءَ عَلَى النَّـاسِ﴾، وقال لهم رسـول الله ﷺ وهو يودّعهم في حجة الوداع: "بلّغوا عني ولو آيـة"، وقال لهـم أيضًا: "إنما بعثتم ميسـرين"، فهم المبتعثون من قبله عليه الصلاة والسلام ليحملوا رايته إلى الإنسانية.

خامسًا: الويل لهؤلاء المبتعثين من رسول الله ﷺ إن خانوا الأمانة ولم يبلّغوا الرسالة، ولم يقدّموا طوق النجاة "القرآني" للبشـرية بأحسن الطرق، وأعدل وسائل التقديم، أي بالحكمة والموعظة الحسـنة، والثقافة الرفيعة التي تحترم -أيضًا- قيمة العقل الإنساني الذي سيتحمّل أعباء كثيرة في المرحلة التالية.

سادسًـــا: ويا ويـل العقل إن عبد نفسـه، وقرر أن يسـتغل الفرصة للمُضي مختالا مغرورًا، بعيدًا عن أوامر الوحي ونواهيه الفاصلـة التي تحدد له شـارات المرور الحمـراء والخضراء.

صحيـح أن الإنسـانية التـي يقودهـا العقـل، تتحمل كلها مسـؤولية انفصال العقل عن الوحي، لا سـيما الوحي الأخير الذي احترم العقل كل الاحترام، ووفر له أكبر شروط الفعالية والإيجابيـة والإبـداع في إطـار الثوابت الإلهية التـي جاء بها القرآن الذي يهدي إلى التي هي أحسن.

ســابعًا: لكن هذا لا يقلل من مسـؤولية المسـلمين الذين ينبغي عليهم أن يعرفوا دورهم، ويبلغوا الأمانة التي نيطت بهم إلى الناس باللغة العربية وبلغات الناس جميعًا، وبكل وسائل البلاغ، وسيكون حسـابهم عسيرًا حكامًا ومحكومين، مثقفين وعلمـاء ودعاة وعامة من عامة الناس... فكلهم مسـؤول عن أداء وظيفة "البلاغ" في حدود طاقتهم، تأسّيًا بخطوات نبيهم وإمامهـم وقدوتهم خاتـم النبيّين ﷺ الذي قال الله ﷻ له: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾.

لقـد كانـت أيامًـا صعبة هـذه الأيام التسـعة، التي عاشـها الرسـول ﷺ وهو ينتظـر أن تصعد روحه إلـى الرفيق الأعلى، وأن يعود مرة أخرى إلى "سـدرة المنتهى"، يجلس إلى جوار أبيه إبراهيم عليه السلام.

لقد كان الرسول ﷺ ينظر في وجوه أصحابه رضي الله عنهم وتدور في فكره تساؤلات:

هل ستثبت هذه الأمة على ما مات عليه وما علّمها إياه؟ أم هل تخون الأمانة فتغير وتبدل وتتقاعس وتغلبها المطامع الدنيوية؟

لقد كان عليه الصلاة والسـلام يعـرف أنه بدأ ليله ونهاره، سـواء في بطاح مكة وشـعابها، أم فـي دار الأرقم بن الأرقم، أم في مسـجده الكريم في المدينة، من أجل أن يبني الإنسـان المسـلم القادر على أداء الأمانة والزهـد في الدنيا، ولقد أيده الله ﷻ ونصـره وفتح له قلوبًا مغلقـة وعقولًا جامحة، وكانت الآلاف المؤلفـة مـن أصحابـه أهـلاً لحسـن الظـن بهم، لأن الله ﷻ مدحهـم فـي القرآن الكريم وأثنـى عليهم وقال عنهم: ﴿أَشِـدَّاءُ عَلَـى الْكُفَّارِ رُحَمَـاءُ بَيْنَهُمْ﴾(الفتح:٢٩)، ومدحهم في بيعـة الرضـوان، وذكر أن أهل بدر جميعًا غفـر لهم، وبالتالي وصفهم الرسـول ﷺ بأحسـن الصفات، وأفاض عليهم أطيب الألقـاب؛ فهذا "صدّيق"، وهذا "فـاروق"، وهذا "أمين الأمة"، وهذا "سـيف الله" وهكذا... لكنه عليه الصلاة والسـلام، كان يستشـعر -كما أشار قبل ذلك في بعض المناسبات- أن هناك خـوارج يمرقـون من الدين كما يمرق السـهم من الرمية، وأن هناك منافقين دخلوا الإسلام بعد انتصاره وتألّق دولته دون أن يفهموا حقيقة الإسلام، وأن هناك قوى ماكرة لن تترك نور الله يمضي دون أن تثير حوله الشبهات.

ومع ذلك فقد انتصر أصحابه الذين آمنوا به حق الإيمان، وكان لهـم فضل القضاء علـى المرتدين والخونة. ولم يكتفوا بمحيط الجزيرة العربية، بل سـاحوا في الدنيا يرفعون راية "لا إلـه إلا الله" بالحكمـة والموعظـة الحسـنة، لا يقاتلون إلا من قاتلهم. وإذا نصرهم الله على أعدائهم وملكوا الأمور، فرضوا العـدل وفرضـوا حقوق الإنسـان، وفرضوا حقـوق الله، على العكـس ممـا تفعله القوى الغالبـة اليوم حين تفـرض الظلم، وتسحق حقوق الإنسان باسم المحافظة على حقوق الإنسان، وتقاتل من لم يقاتلها، وترتكب أعظم الجرائم في التاريخ، حين تزعم أن أفرادًا من شـعب مـا، هاجموها فتهاجم البلد بأكمله وتبيـد أطفالـه وشـيوخه، زاعمة أنها تقوم -حيـن تقتل هؤلاء الأطفال والنسـاء والشـيوخ- بمحاربة الإرهابيين المتطرفين!

ولمدة عشـرة قرون، كانت يد الإسـلام غالبة على العالم، وكانـت حضارتـه هـي الحضـارة الرائـدة، وكان -وهو يعلم البشرية- يتلقى الضربات والإبادات الجماعية من الصليبيّين، لكنـه أبى أن يفعـل كما فعلوا، لأن أصحابه -تلاميذ أصحاب رسـول الله وتابعيهـم- يحملـون إلـى النـاس دينًـا وحضارة وأخلاقًا، ولا يحملون إليهم دمارًا ولا إبادة ولا فسادًا ولا نفاقًا.

لقـد كان دينهـم يحكمهـم قبـل أن يحكمـوا بـه غيرهم، وكانـت أفعالهـم الواضحة الشـريفة أقوى مـن أقوالهم، فدان النـاس لهـم وعرفوا قيمة دينهم وعظمة النبـي القدوة الرائعة، الذي ينتمون إليه.

القراءة الخاتمة للقرآن

حين يعتكف الناس في العشر الأواخر من رمضان ويقرأون القرآن ويتدبرونه، عليهم أن يحاولوا استعادة هذه الأيام العشرة أو التسعة التي انقطع بعدها جبريل عليه السلام عن زيارة الأرض، وودّع صاحبه النبي العظيم ﷺ، وانتهت آخر كلمات السماء، وبقي وحده -خاتم النبيين- يجاهد بالقرآن جهادًا عظيمًا، وهو يسأل ربه ألا تفتن هذه الأمة من بعده عن دينها تحت وطأة ما ستملكه من أرض الله بعد أن تفتح عليها الدنيا، وهو يسأل الله سبحانه وتعالى ألا يكون بأسهم بينهم، وألا يعودوا إلى الجاهلية يضرب بعضهم رقاب بعض، وألا يعيدوا الظلم إلى الأرض، وهو ذلك الظلم الذي كان عليه الكسروية والقيصرية.

وهو ينادي الأمة مع كل ذلك قائلًا لهم: "لا تسبّوا أصحابي"، "اتقوا الله في أصحابي"، "لا تؤذوني في أصحابي"، "والصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم".. كأنه يعلن حملة على استعباد السادة للعبيد. وهو يوصي أيضًا بالمرأة لأنه كان يعلم أن الرجال سيظلمونها، وسيبعدونها عن بيوت الله، وعن أخذ حقوقها والقيام بدورها.

هكذا كانت خواطره ﷺ كما تدلنا آثاره في أيامه الأخيرة. فهل نحيي في نفوسنا ذكريات هذه الأيام الأخيرة التي راجع فيها النبي محمد ﷺ وجبريل عليه السلام القرآن المراجعة الأخيرة الخاتمة، وهل نحيي في وعينا وأعمالنا ذكريات رمضان مرتبطة برحلة القرآن التي بدأت في رمضان في ليلة القدر، وانتهت في رمضان عندما اعتمد الأمين جبريل القراءة الخاتمة للقرآن التي أكمل بها الدين وتمت بها النعمة. وعسى أن نعيش هذه الرحلة القرآنية الرمضانية في واقعنا وفي حياتنا كما كان يعيشها الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم يومًا بيوم منذ رمضان الأول الذي نزل فيه القرآن، إلى رمضان الأخير الذي عاشه جبريل ومحمد عليهما السلام، وكأنهما يودّعان الأرض بقلوب خاشعة وأعين دامعة، لكنها دموع معنوية نفسية، وليست بدموع من نوع دموعنا.

فعليك السلام يا جبريل وأنت تودّع الأرض وتودع محمدا ﷺ، وعليك السلام يا خاتم الأنبياء وأنت تؤثر الآخرة وتقول: بل الرفيق الأعلى. ■

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.



البذرة والتراب

إلى العلاء سموتِ،
من تحت التراب علوتِ،
بذرةً كنتِ فارتقيتِ،
وغصنًا نضيرًا تحولتِ،
وتبرعمتِ، وشجرةً للأعالي انتصبتِ،
غدًا ستثمرين وتغدقين،
وربيعًا زاهرًا إلى العالم ستهدين...

* * *

شعر

عبد الرزاق مرزوك*



نور أحمد

طالعتُ نور أحمد وأنا أجر خطاي الثقيلة إلى غدير السراح. كانت أوهاق العتمة تعيد عينيَّ إلى الأرض في إصرار كي لا أنظر إلى أعلى، وتسيخ بقدميَّ في وحل الوراء كي لا أطأ رمل الغدير الناعم.. والكون يضيق بي طورا.. وطورا يشع ذلك النور المحمدي فيسحب عني جثم العناء، ويتسع لعزمي الفضاء.. هتفتُ هتاف الظامئ الآيب:

رَبَّاهُ أَشْعِرْ طَلْعَتِي سَكْبَ السَّنَاءْ ... بَلِّغْ يَدِي عَلْيَاءَ أَحْمَدَ فِي السَّمَاءْ

أَشْرِبْ جَنَانِي مَكْرُمَاتِ وَلائِهِ ... أَلْبِسْ مُنَايَ جَمَالَهُ بِيَدِ الْوَفَاءْ

فَأَنَا حَسِيرٌ وَالشُّرُوقُ ذَرِيعَتِي ... وَالأُفْقُ يُغْشِي نَاظِرِي لَمْحَ الصَّفَاءْ

كَالرِّيحِ شَوْقِي سَاقَ لِي مَوْجَ الرِّضَا ... فَرَكِبْتُ أَدْحُو بِالرَّجَا غَيْمَ الْجَفَاءْ

أَحْبَبْتُ أَحْمَدَ وَاصْطَفَاهُ تَعَلُّقِي ... فَصَفَا فُؤَادِي وَارْتَضَى نَبْضَ النَّقَاءْ

طَافَ الْغَدَاةَ يَشِيمُ بَرْقَ رِهَامِهِ ... يَرْجُو الْوِصَالَ وَلَمَّةً تُدْنِي الرِّوَاءْ

سَكَبَ الْحَنِينَ إِلَى الْحَبِيبِ وَرَاعَهُ ... حَلَكُ السُّرَى، فَمَتَى يَرَى فَجْرَ اللِّقَاءْ؟

وجدت نفسي في برزخ النجوى، أناشد ربي، أتلو قصيد الرجوى.. أردده فينساب أمامي ضياء يبدد غيم الدجى، ثم يرتد الغيم ورائي دخانًا يقتات الهباء، وَحول محرابي حفيفٌ دون سمعي ينثال له رَفٌّ قُدسي ولذةُ جمال.. وخلالي هاتف ينبعث من قاع كياني، وآخر آت من خلال الأعالي، ينساب مع النور من بين الثقوب: ما أقرب نور أحمد من طالبيه لو أبصروا، وكم ممن ينتسب إليه وهو من نور محبته محروم.. ثم أقبل عليَّ يتخللني: بشراكَ قد بلغتَ غدير السراح، هذه أول خطواتك على رمله الناعم.. كشفتُ غطاء الحرمان وهرعتُ إلى الغدير. ■

(*) جامعة شعيب الدكالي / المغرب.



ثقافة وفن

د. عماد الدين رشيد*

تحصَّنْ بالحسنات لدفع سيئات غيرك، وبرفيع الأذواق قابل سوءَ أذواق الآخرين، كن نضَّاحًا بكريم السلوك، وبجميل الأخلاق، واعلم بأن كلَّ إناء بما فيه ينضح.

* * *



الدراما في القرآن الكريم

لا يحتاج الباحث كبير عناء للوصول إلى الدراما في القرآن الكريم، فحين نسلط الضوء على بعض المشاهد القرآنية ونعرضها على أحكام فن الدراما، نرى ضيق المسافة الشديد بين هذه المشاهد والدراما، إلى درجة أن يتبادر إلى الذهن أنهما مفهوم واحد، ولا سيما إذا كانت المشاهد حوارية.

قال الدكتور محيي الدين عبد الحليم، وهو أستاذ الدراسات الإعلامية في جامعة الأزهر: "ليكن كتاب الله الكريم لنا خير معلم، انظر إلى "الدراما" وهي التسمية المتعارف عليها بلغة الإعلام المرئي والمسموع، انظر إليها في القرآن الكريم، تجد لها بصمة واضحة في قصة يوسف، وقصة أيوب، وقصة خليل الله إبراهيم عليهم جميعًا السلام، انظر إلى "الدراما" القرآنية في قصة أهل الكهف، لقد عرضها الله تعالى عرضًا محكمًا على نبيه الكريم".

فقد عرض القرآن الكريم بعض مشاهده القصصية عرضًا دراميًا، تضمنت خصائص الدراما البنائية من التمهيد الدرامي، والذروة الدرامية، وخصائصها الأسلوبية، كالتشويق والخطف خَلْفًا وغير ذلك، بالإضافة إلى المعهود من خصائص البيان القرآني الأخاذ.

فنجد مثال ذلك في قوله تعالى في سورة القصص:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۞ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ۞ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۞ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(القصص:٧-١٣).

تمثّل هذه الآيات نصًّا دراميًّا متكاملاً تتحول فيه الكلمة إلى لقطة، والجملة إلى مشهد. فحين يسمع القارئ الآيات، تسبح مخيّلته في زوايا المشاهد وتحاكي معاني النص بحاسة البصر، وكأن المرء يرى مشاهد مصورة، بينما يقوم السمع عادة بإدراك معاني النصوص القصصية الأخرى.

التمهيد الدرامي

يبدأ العرض الدرامي بالتعريف بالشخصيات، من حيث أفعالهم ومراكزهم الاجتماعية ونحو ذلك؛ كي يدخل السامع في الحكاية الدرامية على نحو يؤهله للتفاعل مع أحداثها، ويتشكل بذلك منطلق الدراما. ثم تبدأ "نقطة الهجوم" بالحديث عن وحي الله ﷻ لأم موسى عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وفي أول النص، يجد السامع صعوبة في فهم ما تقوم به أم موسى التي تسكن على إحدى ضفاف نهر النيل، فقد فتحت في جدار بيتها ثقبًا وألقت ولدها من خلاله في اليم، بعد أن وضعته في صندوق خشبي مربوط بحبل، وربطت طرفه الآخر بجدار البيت الخارجي. ولكن السامع سرعان ما يدرك السبب إذا رجع إلى مستفتح السورة حيث قوله تعالى: ﴿طسم ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:١-٤). فالمرأة تخفي ولدها خوفًا من الملك الذي يقتل المواليد الذكور وجنده الذين يفتّشون بيوت بني إسرائيل. فبداية السورة تمثل التمهيد الدرامي، على الرغم من كون سبكها القصصي قائمًا على أسلوب الروي البعيد من حيث الظاهر عن الدراما، لأنه غلب أن تعتمد الدراما على الحوار لا الروي.

الذروة الدرامية

وذات يوم فاجأها الجند مداهمين البيت، فألقت صندوق الرضيع من غير أن تربطه بالحبل! وهنا تبدأ الأحداث بالتأزم والتوتر حين يسير التابوت مع مسيل النهر، حتى يدخل مياه قصر الطاغية فرعون ويلتقطه حاشيته. وهنا أيضًا تحتبس أنفاس السامع، وتزداد نبضات قلبه عددًا وتسارعًا، وهذا الحدث تحديدًا هو ما يمثّل الذروة الدرامية، ويتجسد في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، إذ تتجمع هاهنا عناصر التوتر كافة، المرأة تجازف في كل مرة بولدها فتقذفه في التابوت، وتقذف التابوت في اليم استجابة للإلهام الإلهي، ثم ينتهي الأمر بأن يقع الوليد في حجر قاتل الأطفال. وتقوم أحداث الذروة على المفارقة الدرامية، فقد استجمعت أقصى ما يمكن أن يعد من باب سوء التفاهم، فالحوار الصادق سيؤدي إلى قتل الصبي، فضلاً عن إلحاق الأذى بأمه وربما بأهله جميعًا، لأن منطق الطغيان يقوم على استعباد الآخر واستباحة خصوصيته. وفيما وصلت إليه الأم الثكلى من حال يكمن التحدي الإيماني، والصراع ما بين تصديق وعد الله والواقع المؤلم، ويعبر البيان القرآني بقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وفي هذه اللحظة يتكثف التشويق، ويبلغ الجذب غايته، ويأسر المشهد متابعيه في الاستمرار في إكمال أحداثه حتى النهاية.

ثم تبدأ الذروة بالانحلال رويدًا رويدًا: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾. فها هو الصبي ينجو من القتل، بل ها هو ذا يعيش ولدًا مدللاً في أكثر الأماكن أمنًا في مصر، في قصر فرعون قاتل أبناء بني إسرائيل.

وفي زحمة هذه الأحداث، ينزلق حدث مفصلي يتمم حل الذروة الدرامية، فتنفرج الأمور حين يرفض الصبي -المحبوب

مـن زوجة فرعون وأهل القصر- الرضـاع إلا من أمه، ويعلن البيان الإلهي نهاية التوتر بقوله: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

الحبكة الدرامية

والبديع أن البيان الإلهي لم يقفل الحديث عن مشاهد الطفولة الأولـى لموسـى ﷺ، إلا بعد أن قـدّم تمهيـدًا دراميًّا جديدًا للأحداث اللاحقة. فقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. يمهد لجملة مشاهد من الصراع تحملها الآيات التالية من السورة.

نجـد من خلال هذا المثال قوة الحبكة الدرامية وترابطها، وتسلسـلها الرشـيق، إذ لا يحتاج السامع إلى كبير عناء ليدرك انسـجامها، إلى درجة أن يكون هو أحـد أبطال الواقعة، فمرة يتصور نفسه الأم بشفقتها الشديدة، وذوبانها في حماية ولدها وإيمانها الراسـخ، ومرة يجد نفسـه الأخـت الذكية التي تتابع التابـوت على ضفاف النهر، ويحيا فـي ثنايا ذلك كله، الحالة النفسـية لأبطـال القصة، بأبعادهـا الإنسـانية والإجرامية على السواء، لأن النص القرآني قد اتخذ من التصوير الفني أسلوبًا للعرض الدرامي، لما يقوم به التصوير من تحويل الكلمة إلى لوحـة، وكأن القلم في يد الكاتب ريشـة فـي يد فنان، تغترف الألوان من مخيلته حتى تجردت كلماته من قسوة القلم الذي ينحت المعنى من معجم الكاتب.

فهـذه الدراما في القرآن الكريم وأمثالها، لا تنقل الحدث إلى السامع كالقصة أو الرواية، بل تنقل السامع نفسه إلى قلب الأحداث، وكأنه قد أسـهم في صنع الحدث. وهذا كله يدلّل على التماسك الدرامي الشديد في هذه الدراما.

وهكـذا فقـد عـرض لنـا القـرآن الكريـم في هـذا النص درامـا متميـزة، قد اسـتجمعت مـن خصائص البنـاء الدرامي أتمـه، وبـرزت فيهـا أجـزاء العمل الفنـي المبدع، واتسـمت باللغـة الحوارية الرشـيقة، وانتقلت بالحـدث من عمق زمانه، ووضعته بين يدي السـامع كأنه يقع أمام ناظريه، بل كأنه أحد شـخصياته. ومـن أجل هـذا كله، فإنها تصلـح أن تكون مثالاً تدريسيًّا نموذجيًّا للدراما المتميزة.

صدق التصوير وسعة التخيل

وممـا ينبغـي التنويـه إليـه، أنه علـى الرغم من اجتمـاع أعلى عناصـر النجـاح في هذه الدراما، لم يخـرج النص عن صدقه فـي محتـوى الدرامـا، ولا فـي حبكتـه الدرامية، فلم يسـلك مسـلك توسـيع الأحـداث والتفاصيل، أو ابتكار شـخصيات وأحـداث جديدة، أو توسـيع محل القصـة الدرامية التي يعبر عنهـا زمانيًّـا أو مكانيًّا، بل انتهج طريقًـا أخرى، محافظة على صدق الأحداث، فوسـع مخيلة السـامع، وفسـح أمامها آفاق التصـور، مسـتعملاً طـرق التصويـر الفنـي المتعـددة، فوجد السـامع نفسـه في سـاحة الأحداث، يسـتجيب لما يمليه كل حـدث من انفعال نفسـي، فتتلوّن قسـمات وجهـه وحركات جسده، حسبما يفرض الحدث ويتطلب الموقف.

لقـد اسـتطاع البيـان القرآنـي ببراعة، أن يحـول القصص التاريخيـة التي عفا عليها الزمـان، وقضى أصحابها منذ قرون متطاولة، إلى دراما فنية، فاسـتطاع أن ينبش أشخاصهم وليس أحداثهم فحسـب، وكأنك تجالسـهم وتصافحهـم وتواكلهم وتشـاربهم. فلئن كانت القصة التاريخية تحيي الأحداث، فإن الدرامـا القرآنيـة تحيي الأشـخاص والأحداث معًـا، فكأنك تعيـش مـع أبطـال القصة، مـع تـدرج الأحداث، بـل وتدرج أزمانهـم: فأنـت ترى موسـى ﷺ في مهده، بل تـراه قبل أن يولـد، مـن خلال التمهيـد الذي تقدمـه القصة لما سـيحدث فيكـون لـك تصور لما سـيأتي. ثم تراه بعد ذلـك رضيعًا، ثم تـراه في التابوت، ثم تراه فتى في قصر فرعون، ثم تعيش معه بعد ذلك في محنته، ثم تراه في أهل مدين وهو يخطب الفتاة على ماء مدين، ثم تراه بعد ذلك رسولاً نبيًّا، ثم ترى السحرة وهم يسجدون معه لله رب العالمين...

لقد عاش موسـى ﷺ من جديد مع الدراما القرآنية، فلم تكـن مجـرد أحداث من حياة موسـى ﷺ اسـترجعها النص القرآني على الطريقة التاريخية أو القصصية.

هكـذا تفعل الدراما القرآنية في المشـهد؛ تحول الصمت كلـه إلـى ضجيج، والسـكون إلى حركة، والأبيض والأسـود تحولهمـا إلـى ألوان زاهية تسـر الناظرين وتبعـث في قلوبهم أنواعًا كثيرة من الحياة. لم يكن القرآن في قصته مجرد سـارد أو قـاص، إنما تصرّف بالدراما كأنه مصور يأخذ السـامع إلى الحدث، وليس يأخذ الحدث إليه. فإننا نعلم أن المخبر ينقل الحـدث إلـى السـامع. ولا نعلم أنه يمكن للقـاص أن يدخل في جوف الحدث فيأخذ معه السـامعين، ولا نرى هذا إلا في دراما القرآن الكريم. ■

(*) جامعة دمشق، كلية الشريعة / سوريا.

د. سعاد الناصر*



لنحيا بالحب

من الأمور الواضحة أن الإنسان -إلا من رحمه ربه- أصبح يعيش جفافًا ملحوظًا وقسوة بارزة. قد تدمع العين على صورة دامية أو يخفق القلب على حال سائب. لكن، هل هذا إلا إحساس عابر من هول اللحظة، لينجرف الجميع في دوامة من الغثائية والعبثية، التي تجعل الفرد يجري دون أي إحساس بمجموعة من القيم التي تعطي لحياته معنى ودلالة، وتمهد له الطريق نحو السعادة؟

ولعل افتقاد الإنسان -بصفة عامة- في هذا الوجود لقيمة من أرقى القيم الإنسانية، وتمييعها وإلباسها لباسًا لا يمت بصلة إلى معانيها ودلالاتها، جعلت الحياة برمتها تفقد معنى وجودها ومغزى خلقها. هذه القيمة هي الحب.

السمو بقيمة الحب

فالحب من القيم السامية التي جعل الله ﷻ فطرة الإنسان تهفو إليها، وجعلها سبحانه أساس العلاقة التي تربط بينه وبين عبده من جهة، وبين الأفراد والجماعات من جهة أخرى، وجعله جسرًا نحو الشعور بالرضا

عن النفس كلما استطاع أن يحب وأن يُحَب، كما جعل من ينعم به أكثر إيجابية في حياته وعلاقاته وأعماله. لكن -للأسف- نظرة إلى مجتمعاتنا، تكشف أن ينابيع المحبة تكاد تجف من القلوب، وامتلأت هذه الينابيع بأعشاب الغفلة والنفور والقسوة والحقد والكراهية، وأصبح عجز الإنسان عن محبة ذاته نفسه ظاهرة فضلاً عن محبة غيره، بل فقدت هذه القيمة لبّ مفهومها وطبيعة وجودها، وانحرفت إلى مسارب الشهوة والمصلحة. ولم تعد تعبر عن مفهومها الكوني، من حيث هي تجربة وجدانية تساعد الإنسان على نسج علاقات رائعة ينعم في ظلها بالأمان والاستقرار والتساكن. ورحم اللّٰه الأستاذ "سعيد النورسي" حين قال في "الكلمات" في رسائل النور: "المحبة سبب وجود هذه الكائنات والرابطة لأجزائها، وإنها نور الأكوان وحياتها".

الحب من القيم السامية التي جعل الله ﷻ فطرة الإنسان تهفو إليها، وجعلها سبحانه أساس العلاقة التي تربط بينه وبين عبده من جهة، وبين الأفراد والجماعات من جهة أخرى.

ولعل قيمة الحب من أبرز القيم التي فقدت معانيها في حياة الإنسان بصفة عامة، وتشوهت مفاهيمها في العقل والوجدان، وارتبطت بكل ما يؤدي إلى الإسفاف والابتذال والزيف والآثام، وكان من نتيجة ذلك أن فقدت الحياة مغزى وجودها كله، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦). ولن يتحقق مفهوم العبادة، إلا برابط الحب بين العبد ومولاه، وتسليمه ناصيته له طواعية واختيارًا وحبًّا. ولا يكفي أداء الشعائر المفروضة للتعبير عن هذا الحب، وإنما يجب أن يكون متغلغلاً في الفؤاد والوجدان، ليفيض في شرايين الممارسة والسلوك، ويرقى بالعلاقات في مدارج السمو اللائق بالإنسانية، أيْ إن رابط الحب بين الخالق والمخلوق، يجب أن يكون جسرًا للعبور نحو الآخرين ومحبتهم، مهما اختلفنا معهم. لكن -للأسف- فإن الفصل المهوّل بين إعلان الحب لله ﷻ، من خلال تنفيذ شعائره الدينية التي يقوم بها المسلم كل يوم عبر الصلاة مثلاً، وبين تفعيل مقاصد تلك الشعائر في حياته وسلوكه وعلاقاته، تجعل من السهل أن يطفو إلى السطح الجفاف والغلظة والتباغض والتحاسد، والغرق في التنافر بدل التآلف، والقسوة بدل الرحمة، والبخل بدل البذل والإنفاق المعنوي قبل المادي. وبالتالي لا يستطيع المسلم التبشير من خلال نفسه بالقيم الحقيقية والفاعلة، سواء في مجتمعه أو في أي مجتمع آخر، كما يفقد مصداقيته وعوامل تأثيره.

الحب والتآلف

وإذا عدنا إلى القيمة الأولى، التي قام عليها المجتمع الإسلامي الأول على عهد رسول اللّٰه ﷺ، نجد أنه قام على المحبة الخالصة المؤلفة بين القلوب، والمسعفة على التآخي والعطاء. ذلك أن رسول اللّٰه ﷺ ربّى أصحابه على قيمة الحب، وحثهم على إشاعته وتحقيقه عبر وسائل وممارسات مختلفة، لأهميته في تحقيق السعادة للفرد والأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية، وفي توحيد القلوب وتآلفها، أو تعارفها وتعايشها وتفاهمها، ولدورها في إعطاء الأمة قوتها وصلابتها، فلا تهون ولا تتفتت ولا تعبث بها الفتن والدسائس، وتقوم كل العلاقات والممارسات على أساس من الحب: حب اللّٰه، حب نبيه، حب الخير، حب الناس... وكانت شخصيته ﷺ التي تفيض حبًّا ورحمة ومثلا أعلى، يهدي المجتمع الوليد إلى تنزيل القيم الإنسانية التي جاء بها، أو رسّخها في واقعه وسلوكه، كما كانت الأحاديث من مثل قوله ﷺ: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم" (رواه مسلم)، وقوله ﷺ: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله، ومن كان في حاجة أخيه كان اللّٰه في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرج اللّٰه عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره اللّٰه في الدنيا والآخرة" (رواه البخاري)، وقوله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (رواه البخاري)، وعن أنس ﵁ أنّ رجلا سأل النبي ﷺ متى الساعة؟ قال ﷺ: "ما أعددتَ لها؟" قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحبّ اللّٰه ورسوله، قال ﷺ:"أنت مع من أحببتَ"، قال أنس ﵁: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: "أنت مع من

أحببت". مثل هذه الأحاديث كانت تسري ندية في حياته، وحياة الصحابة من حوله، ليشتد البناء ويقوى وترتفع هامته. فأين نحن من هذا الحب في مجتمعاتنا؟!

نعم، نتساءل بمرارة ونحن نرى مظاهر افتقاد الحب في علاقاتنا الإنسانية: أين نحن من الحب الذي فاض عن قدوتنا ومثلنا محمد ﷺ، وسرى نديًّا في شرايين الأمة؟ لِمَ لَمْ نعد نستشعره ونتذوقه ونغترف منه لتليين قلوبنا وترطيب العلاقات بيننا، كي تتخللَّها قيم التسامح والتجاوز والتناصح المؤدية إلى التآلف والتعايش؟ ألم يجعل الله ﷻ الحب في الله، سببًا للنجاة من النار ودخول الجنة؟ ففي الحديث الصحيح المتفق عليه في السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله، منهم: "رجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه". ألم يقل ﷺ في حديث صحيح عن أبي هريرة ﷺ: "إن من عباد الله عبادًا ليسوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشهداء"، قيل: من هم لعلنا نحبهم؟ قال ﷺ: "هم قوم تحابوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس"، ثم قرأ: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(يونس:٦٢).

الحب سكينة

ألم يأن للذين آمنوا، أن يعلموا أن إيمانهم يفقد عناصر حيوية مسعفة على الإحياء والتوازن، حين يهمشون دلالات الحب من حياتهم؟ إننا إذا حاولنا إحصاء النصوص الداعية إلى تفعيل معاني الحب في حياة الإنسان، نجدها لا تعد ولا تحصى، بل يمكن أن نجزم أنها تكاد تشمل كل مناحي الحياة، ولعل هذا الحديث النبوي الشريف يضع معايير شاملة لبناء الإنسان الحضاري، الذي يجعل من الحب قضيته الكبرى التي يجب أن يعيش من أجلها في كل مراحل حياته، ويقف في سبيلها مواقف تصقل مشاعره، وتذيقه الطعم الحقيقي للإيمان، يقول ﷺ: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار" (رواه البخاري).

إن الحب نعمة من الله ﷻ لا يجب التفريط فيها، أو تمييعها، أو تحريفها عن مسارها المفضي إلى الله ﷻ، نعمة تتوالد منها نعم كثيرة أبرزها نعم الوحدة والتآلف، ابتداء من أصغر وحدة في المجتمع (الأسرة)، مرورًا بكل الوحدات الأخرى إلى أن تشمل الإنسانية جمعاء، لتصبح مدار حياة الإنسان لا تخرج عن دائرته الربانية، التي تذيقه طعمًا إيمانيًّا، ينبع عنه سلوك عملي وأخلاقي يتميز به المسلم عن غيره، ويربطه بأصل الانبعاث الإسلامي في قوله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

ودون أن ندخل في تجليات الحب المفترضة في حياتنا، لأن ذلك يحتاج إلى وقفات وتفاصيل أخرى، لكن قد يكفي أن نتساءل: هل يبني المسلم حياته مع غيره، على أساس التعاون والتسامح والنصح والصفح، ويجعل ذلك من ضرورات بناء علاقاته الاجتماعية، وتحقيق التوازن في صلاته الإنسانية؟ هل يستشعر المؤمن روح الإيمان الحي من المشاعر الرقيقة التي يكنها المسلم لإخوانه حتى إنه ليحيا معهم وبهم؟ هل فكّر الواحد منا، أن يسامح أخاه مهما كانت إساءته له، وأن يمد له يد المحبة المرة تلو الأخرى حتى يلين قلبه؟ هل يحاول أن يمحو من ذهنه كل سلبيات من يعايشهم، ويضع نصب عينيه إيجابياتهم كي يستطيع إقامة علاقة المحبة بينه وبينهم؟ هل يتذكر الزوج أحيانًا زوجته بشكر وثناء على مجهوداتها في إدارة البيت، أو يقدم لها هدية رمزية وكلمة دافئة تشعرها بحبه وتقديره؟ وهل تتذكر الزوجة في ظل ضغوط الحياة، أن تمنح زوجها ابتسامة عذبة ولمسة حانية تخفف عنهما عنف الضغوط مهما كانت؟ وهل تفهم أن للزوج حقوقًا يجب أن تؤديها قبل أن تطالبه بحقوقها لكي يتجدد تدفق نهر الحب بينهما، ويعيشا حياة يملؤها الدفء والحنان؟ هل يحاولان نسيان تصيد الأخطاء لبعضهما البعض وتذوق الإنجازات الإيجابية في حياتهما مهما كانت بسيطة؟

إن هذه الأسئلة وغيرها، قد تكون ميزانًا نقيس به حرارة قلوبنا، وحافزًا على سلوك سبيل التحولات الإيمانية الكبرى، التي لا يقوى عليها إلا أصحاب الأرواح العظيمة المؤرقة، التي يقلقها ثقل المسؤولية التي شرفها الله تعالى بتقليدها. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة تعلمنا كيف نعيش الحياة بحب، ولا نفرط في كل دقيقة أن نحيا بالحب مهما كانت المعاناة، ومهما كانت ثقل المسؤوليات، لأن في إسعاف أنفسنا على إشاعة علاقات الحب الإنسانية الراقية، دليلاً على أننا نحيا، وأننا في طريقنا نحو السعادة والإيجابية. ■

(*) جامعة عبد المالك السعدي، تطوان / المغرب.

د. محمد جكيب*

الأديب وصناعة الحياة

مهمـة الأديب فـي المجتمع مهمة عظيمـة، ومن خلال مهمته تنجلي مهمة الأدب التي هي جزء من وظيفة الفن في البناء الحضاري. إن النظرة الضيقة التـي تظن بأن الاهتمـام بالفنون أمر ثانوي ينبغي تأجيله إلى ما بعد بناء الأسـس والركائز نظرة قاصرة، بل هناك من يرى إلغاء النظر فيها بالمرة نظرًا لعدم أهميتها في الحياة والمجتمع. تحتم شمولية الرؤية باعتبارها ركنا من أركان التصور الإسلامي ومقوماته، أخذ جميع مناحي الحياة المرتبطة بالإنسان بعين النظر، المنهـج فـي ذلـك هو آيات القرآن الحكيم وسـيرة الرسـول ﷺ. لأن الفـراغ المتروك بسـبب تأجيـل النظـر وتوفر الفـراغ لذلك قد يملأه الغير، بما قد يفسـد أمـة بكاملها. الإبـداع الأدبي والإبداع الفني بصفة عامة ركيزة من ركائز بناء الحضارة والإنسـان، لأن الرؤيـة الطامحة إلـى البناء وعمارة الأرض، والمتشـوقة إلى ميراث الأرض الـذي بشـر به الخطاب القرآنـي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَـا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥) لا مندوحة لهـا مـن أن يكون فيهـا للإبـداع الفني والأدبي حيـز لا يقل مجالـه عـن حيـز أي مجـال آخر مـن مجالات الحياة الإنسـانية ونشـاطها.



الأديب الحق هو نبض المجتمع، وليس معنى هذا أن يجامل الأديب الأصوات الشاذة في المجتمع باعتبارها جزءًا منه، بل هو مطالَب بالانحياز إلى الحق، ومطالَب بأن يكون الضمير الحي المتيقظ القادر على رصد كل مظاهر الانحراف، والتنبيه على ذلك.

مجالات البناء متعددة بتعدد مجالات الحركة الإنسانية، ومتنوعة بتنوع مجالات الحياة، والأصل هو كل ما فيه مصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة، وليس المجالات التي فيها مفسدة، فهذه يلزم محاصرتها بالحضور القوي لطاقات الفعل النافع وكثرته.

لقد مرّ على الفنون والآداب حينٌ من الزمن، رتعت فيه دون ضابط يضبطها ولا حدود تؤطرها، فأنتجت أنواعًا شتى من الفنون والآداب، هدمت ولم تبن، وربطت المقبل عليها بلا جدوى، وعملت جاهدة على إلغاء النظام والتوازن، ونشرت الفوضى ومختلف أنواع الرذيلة والسقوط الأخلاقي، وبسببها انهارت القيم، موظّفة في ذلك شعارات براقة تخلب الألباب وتسلب العقول، من قبيل الحرية المطلقة والتعبير عن الذات وتحقيقها. وقد تحقق لها ذلك في دائرة التركيز على الفرد باعتباره مركز العالم ومصدر كل شيء، انطلاقًا من كونه مادة خالصة أوجدتها الطبيعة.

وقد روجت بعض المذاهب الأدبية والفنية -وما تزال- لكل مقومات السقوط الأخلاقي، وتراجع القيم، وتزوير الحقائق الكونية، وإبراز الشر على أنه حقيقة إنسانية مطلقة، وأصلٌ في صلب فطرته، وليس على أنه ضعف ينبغي مقاومته، وإلغاؤه من حيز التصرف الإنساني. وتكاد تكون هذه الفكرة هي المحور الذي تدور حوله أغلب المذاهب الأدبية، مرة باسم "الرومانسية"، وأخرى باسم "الواقعية" أو "الطبيعية"، ومرة باسم "الوجودية" أو "الشخصانية"، وتارة باسم "السوريالية" أو "الدادائية"، وغيرها تتعدد الأسماء لكن المسمى واحد والمرمى واحد.

الأمل وابتغاء الحقيقة

وفي المقابل نجد نموذج الأدب الباني الذي تعود السمو لا النزول، وتعود الصعود لا السقوط وألف الأعالي، وتعود النظر إلى كل شيء نظرة الفاحص العارف بحقيقة المفحوص بحكم موقعه وسموه.

الأدب الباني ليس أدبًا "دونكشوطيًا" وبطله ليس "دونكشوط"، ولا ينبغي له ذلك، فهو لا يحارب الوهم ولا يركض وراءه، ولا يواجه طواحين الهواء، ولكنه بطل يعيش بالحقيقة ويعبر عن الحقيقة ويطمح إلى الحقيقة، وقد يتوسل بالوهم والتخيل (أو التخييل) في التعبير عما يريد الوصول إليه من الحقائق التي يبشر بها في دائرة الإبداع، لكنه لا يعبر إلا عن الحقيقة ولا يتحرك إلا من أجل الحقيقة.

الأدب الباني يتقدم عندما يتأخر الآخرون، ويبقى مسكونا بالأمل عندما ييأس الآخرون، شعلته دائمة التوقد لا تعرف الفتور، وهو دائم الجرأة لا يتخاذل وإن تخاذل الآخرون،



الأديـب الحق مصبـاحٌ يستمد نـوره مـن نـور السمـاوات والأرض لينير حيـاة الآخرين ويملأها بالضيـاء، بل ينير ظلام حياتهم عندمـا ينجلي الزيف، لأن نـوره يبـدد الوهـم، ولأن ضيـاءه لا يزول مـا دام يستمد من مصدر لا نهاية لنوره؛ إذ هو نور السماوات والأرض.

وهـو صـوت العاجزين عن إيصـال صوتهـم، عندما يصمت الآخرون.

ومـن هنـا فالأديب الحـق؛ مصباحٌ يسـتمد نـوره من نور السـماوات والأرض لينير حياة الآخرين ويملأها بالضياء، بل ينير ظلام حياتهم عندما ينجلي الزيف، لأن نوره يبدد الوهم، ولأن ضياءه لا يزول ما دام يسـتمد من مصدر لا نهاية لنوره؛ إذ هو نور السماوات والأرض... فهذا النور الذي يستمد منه الأديب الحق طاقته، يستمر مشرقًا يغطي كل الأنوار الأخرى، على فرض أن هناك أنوارًا أخرى.

الأديب الحق، يؤثر الاحتراق من أجل ضياء الآخرين وإن كانت به خصاصة، لأنه يعرف أن مَن يوق شـح نفسـه فقد فاز فوزًا عظيمًا. فالأدب الحقيقي، إذا غابت عنه الحرقة غاب عنه النور وغاب عنه التأثير.

الأدب الباني ينشر الانشراح الروحي، وينشر الطمأنينة في القلـوب وفي النفوس. ومن شـأن ذلك جعـل أفراد المجتمع غيـر منزعجين ممـا يتواصلون معه من أدب وفن، الأمر الذي يوفـر الجهـد ويمكن مـن صرفه في مجالات أخـرى مختلفة تعود بالنفع على الإنسان والإنسـانية... وكم من طاقة ظلت مكتوفـة غير مسـتغلة بسـبب عـدم الوعي بالأسـلوب الأمثل لتوظيف طاقاتها، بعبارة أخرى عندما يتوحد المنهج، لا تهدر الطاقات في البحث عن أنجع سـبل التناول، كما أن الطاقات الكامنـة لا تتيـه أثناء رحلة البحث عن الذات، ولا تسـقط في شرك الشيطان في رحلة استيعاب المنهج.

الأديب الحق، مركز جذب هو وإبداعه، لكل واحد منهما جاذبية خاصة؛ الأديب بتميزه الفكري والأخلاقي والرؤيوي، والإبـداع والفن بما يتوفـر عليه من مقومات التأثير الإيجابي. فهـذه الجاذبيـة القويـة تجـذب العقـول والأفهـام، وتخلـب الأرواح والوجـدان، لأنهـا نذرت طاقتها مـن أجل الآخرين.

يتألـم الأديـب الحق ويئن ويبكي ويتطلـع ويطمح، ويعبر عن دقائق الأشـياء بحرقة وشوق، ولا يستهين بشيء، فكل ما في الحياة مهم ويتوجب التفاعل معه بالقوالب الفنية اللازمة، بل لا يتوانى عن إعادة صياغتها بما يتلاءم ومهمته الجليلة.

أطول فتـرات المخاض هو مخـاض الأديب، وهو أطول عند الأديب المسـؤول الذي يعـي حقيقة مهمته والدور الذي أنيـط بـه. فهو يعيـش المخاض الطويل من أجـل ميلاد كامل ومتكامـل؛ إذ لا يرضـى بأنصاف الأشـياء ولا يرضى بالتافه، لأنه مسـؤول مهمة كبيرة، ولأنه تعلم قول الرسول ﷺ: "رحم الله عبـدا عمِـل عمَلا فأتقنه" (رواه البيهقي)، وهو إلى جانب ذلك صاحـب همّـة عاليـة لا يرضى بأنصـاف القصائـد والأعمال الإبداعيـة. فهو دائم الحلم بالنص الكامل من أجل الآخرين؛

إذ هو كالشمعة تذوب وتحترق من أجل إنارة عالم الآخرين، وليس في ذلك موتًا لهذا الأديب، بل -على العكس من ذلك- فحياته مرتبط بما يحققه للآخرين من إضاءة لقلوبهم وعالمهم وأرواحهم، وحياته تستمر بمقدار ما يحييه من القلوب والأرواح والنفوس... وهو في كل ذلك لا ينتظر الأجر من أحد سوى من الله ﷻ.

التحلّي بالهوية الذاتية

والأدب الباني ليس ردة فعل ولا ينبغي له ذلك، قد يتبنى قضايا الطبقات المنهوكة والمهمشة والمظلومة باعتبارها قضايا إنسانية، كما قد يتبنى قضايا الطبقات الأخرى ولا فرق لديه. فهو لا يسجن في سجن الأيدلوجيات، ولا يضع نفسه في مقابل التيارات الأدبية أو الفكرية وغيرها من أجل الإلغاء، بل يقدم رؤيته بصدق وأمانة، شعاره في ذلك المصلحة الإنسانية.

الأديب الحق متجدد الروح والنفس، هذا ما يحرك دواليب الإبداع في روحه وقلبه، لأن الأديب الذي لا يملك القدرة على إعادة إحياء روحه بالمعنى المعنوي، مستدعيًا كل الشروط الواقعية والتاريخية أديب جامد لا قدرة له على التأثير في محيطه، ولأن الأديب بما وهبه الله من قدرات يختلف بها عن باقي الناس ،ينظر إلى الأشياء والمحيط والوجود نظرة مختلفة، وإذا لم يكن قادرًا على نقل تفاعله مع الوجود وخالق الوجود بأدوات توصل المراد بيسر وسرعة، فقد قصر عن مهمته. ومن هنا فإن مسؤولية الأديب عظيمة جدًا، لأنه مطالب بإعادة النظر في أدوات تعبيره كلما دعت الحاجة إلى ذلك. إذ يستحيل عليه أن يؤثر وأدواته عتيقة، ولا ينبغي فهم هذا على أنه دعوة لرفض القديم، بل إن القديم أصل للجديد، لكن المقصود هو الأشكال والأساليب التي من خلالها يتم تقديم القديم وصبه فيه.

الشاعر نبض المجتمع

كان الناس في القديم يعتقدون بأن الأدباء والشعراء أفراد غير عاديين، لأنهم يملكون القدرة على التواصل مع قوى غائبة وربطوا ذلك بالآلهة والجن وغيرهما، وكان الشاعر في اعتقادهم وسيطًا بين الآلهة وعموم الناس. وكان الناس يظنون أن الشعراء كالأنبياء، ولهذا -كذلك- عمد كفار قريش إلى التشكيك في نبوة محمد ﷺ فقالوا إنما هو شاعر قبل ترك ذلك عندما ظهر لهم سذاجة ادعائهم. وهذا أبو زيد القرشي في كتابة المشهور "جمهرة أشعار العرب" يتكلم عن شياطين فحول الشعراء ويذكر أسماء بعضهم من زاوية تفسير ظاهرة الإلهام والموهبة. يكشف هذا كله عن نظرة المجتمع إلى الشاعر والأديب. فهؤلاء بالنسبة للمجمع أناس غير عاديين يستحقون التقدير والاحترام أو العكس، أي يستحقون النبذ والإبعاد والعيش على هامش المجتمع. وتذكر مصادر تاريخ الأدب العربي كيف كانت القبائل العربية تحتفل بنبوغ الشاعر فيها وتولم الولائم، وكيف يرتفع شأنها بين القبائل ويصير لرؤيتها قيمة بين القبائل، وهي تدرك هذه المرتبة من خلال إقدام الشاعر الأديب على صياغة موقفها بأسلوب فني رائق يؤثر في النفوس ويقنع العقول. وكم من شاعر تسبب في قيام حرب ضروس، وكم من شاعر تمكّن من إخماد حرب دامت عقودًا، ومعلقة الشاعر الحكيم زهير بن أبي سلمى خير دليل على ذلك. ألم تقم هذه القصيدة الرائعة والزاخرة بقيم النبل الإنساني الرفيع بتخليد قيم السلم ورأب الصدع بين بعض مكونات المجتمع العربي في الجاهلية؟! وقد عرف المجتمع الجاهلي صنفًا من الشعراء رفضوا قيم المجتمع فانعزلوا، أو إن المجتمع عزلهم، لأنهم نغمة نشاز تعزف إيقاعًا غير إيقاع المجتمع، والحال أن الأديب مطالَب بأن يكون نبضه من نبض مجتمعه وإيقاعه؛ هو إيقاع المجتمع.

الفائدة الجمة هي أن ينخرط الأديب في المجتمع فيكون نبضه هو نبض المجتمع، وليس معنى هذا أن يجامل الأديب الأصوات الشاذة في المجتمع باعتبارها جزءًا منه، بل هو مطالَب بالانحياز إلى الحق، ومطالَب بأن يكون الضمير الحي المتيقظ القادر على رصد كل مظاهر الانحراف، والتنبيه على ذلك. والأديب بما يملكه من قدرة على النفاذ إلى عمق الأشياء وفهمها على حقيقتها، فالله ﷻ منح الأديب نعمة لم تمنح لغيره من الناس فميزه عليهم، ولذلك فهو ملزم بإحسان توظيف النعمة. ■

(*) جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجديدة / المغرب.

جمال أمين*

مَنْ قصر نظره، وتسطّح فهمه، خذ له عن الحقيقة بحثه، فلم يظفر بها، ولم يقع عليها.. أما الظافرون بها، فهم الباحثون المجدّون، المتعمقون، المتعبون، المتصببون عرقًا، المجافون للنوم، الساهرون في الليالي، فهم بالحقيقة جديرون.

* * *

لتبلغَ أعلى مستويات الكمال

لا تظنَّه بلوغًا مشروطًا بعزلة عن الخلق في شعفات الجبال ووكنات الوديان، أو حرمانًا للبدن من التنعم بزهرة الدنيا، أو رهبنة تتلمس لنفسها الكمال في التنفير من البذل والأكل والنسل، ولا تحسبنّها رحلة متوقلة أعتى المنعرجات التجريدية في عالم التصوف الإسلامي، ليس هذا ولا ذاك، وإن كان كله مدرجة مرحلية في مدرجات الكمال.

بل هو "معاناة" احتراق الكيان الإيماني في أتون قلب الواقع، واصطلاء بناء التجربة الحياتية في أعمق أغوارها، مع تحريكٍ متواصل لجناح الطهر، يحلق بعيدًا بفعل الاكتواء اللاذع فوق "الفوق" بعد أن استفزته حمية "الاستعلاء" أو قلْ هو "مثلا": كَلِبَاسٍ خرافي أفرزته ذاكرة التاريخ الشعبي، لا تمس النار من يرتديه بأذى وهو يخوض في شعلها اللاهبة، ولا تعتلق قطرة ماء بجسمه وهو في لجج المياه الدائرة.

هي لعبة خرافية تختزنها الذاكرة المتوارثة كبعث خفي للنزوع إلى المطلق المقيد، واستهواء لذيذ لممارسة التقام الجمر اللاذع، مع الاحتفاظ بالتوازن وروح البطولة، وكمادة رخوة تستعصي على التشكل والتقولب، وكمادة زئبقية تستعصي على الثبات والاستقرار، وكحلم "لا واعي" يستعصي على التمثل والتحقق، صمدت في دروب المجهول التراثي الشعبي "بيضة رخ" مكنونة على سرها، إلى أن شرخها معول الإيمان السماوي، فإذا الحلم واقع والحركة استقرار والرخاوة تشكل محدود.

وعبر شاشة الإيمان، المستعرضة لشريط حدثي يحكي قصة يوسف عليه السلام، يوسف الانفصال "من حضن الأب، وحضن البيئة، وحضن القصر، وحضن السجن" في مواجهته الخالدة لعواصف الأنوثة المغرية وهواتف المادة الجاذبة، تجلت منعرجات الكمال المطلوب -الخرافي سابقا- فكان موقفه البطولي عليه السلام "بطولة الصمود، بطولة المواجهة، بطولة الأمانة بحفظ عرض سيده" بطولة الاعتراف الواثق، بطولة رد الاعتبار العادل للذات المجروحة بأشواك السجن المكاني والزماني".. بعثًا للإرادة المؤمنة الغافية وتنبيهًا لها كي تبقى في مثل صلادة الصخر.

لقد سوى به النموذج/المثال للمؤمن الذي يظهر على أشد الجبال "عملقة"، وينزع عنها بعيدًا بعيدًا إلى أفق استنار مشرقاه المتلامعان.

هذا الوعي لشروط بلوغ الكمال نبّه له كبار العارفين المجاهدين ومنهم الإمام ابن كثير في تفسيره الجامع، والعلامة الأستاذ بديع الزمان النورسي كما يظهر في بعض مكتوباته: "... العمل للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل، وذلك بالتوجه القلبي إلى الله طوال سيره وسلوكه، وأثناء معاناته الروحية التي تسمو بحياته المعنوية، أي الوصول إلى مرتبة المؤمن الحق والمسلم الصادق... وهكذا يطير بجناحي الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا...".

وهو وعي يؤديه في عبارة واحدة: إنه "فعل" للإيمان في قلب الواقع الصلد الشائك. ■

(*) شاعر وأديب مغربي.



إبراهيم يوجه داغ*

المعماري سنان
والهندسة الصوتية

ع

عمل المعماري العثماني "سنان" على تطوير أنظمة، تحقّق له التجانس في توزيع الأمواج الصوتية وتمكّنه من الحصول على الرنين الأمثل في آثاره.

فمن أجل الحصول على الطاقة الصوتية والرنين المطلوب، قام المعماري "سنان" باستخدام نظام "تجويف المِرْنان الصوتي" (Resonator)؛ حيث وضع جرّات صغيرة داخل القبة وزوايا المسجد، ووجه فُتَحَ هذه الجرّات نحو فضاء المسجد.

هذا وقد تعود الدراسة الأولى في أوروبا في فهم نظام "مرنان"، إلى العالم الألماني "هيلمهولتز" في عام ١٨٦٢، وقد تم تناول هذا النظام كظاهرة عام ١٩٥٣ من قبَل الفيزيائي "إنغراند"، أي بعد ٤٠٠ عام من "سنان". أثبت "إنغراند" علميًّا، أن المرنان يعكس موجة معينة من الترددات الصوتية، ويمتص الأخرى، الأمر الذي يُكسب القبة ميزة توزيع الصوت بوضوح إلى كافة جنبات المنشأة. وهذا إن دل فإنما يدل على تعمّق المعماري "سنان" في علوم الأنظمة الصوتية وإدراكه لها.

إن جامع "شاه زاده محمد" الذي بلغت مساحته الداخلية ٥٠ ألف متر مكعب، هو أول مسجد ضخم بناه المعماري سنان، حيث تم إنتاج الطاقة الصوتية في هذا المسجد عبر مجموعة من المؤذنين في محفل مخصص لهم. وإذا ما أمعنا النظر في مخططات جامع السليمانية بإسطنبول -ثاني المساجد الكبرى التي بناها- الذي بلغت مساحته الداخلية ١١٠ ألف متر مكعب، يتبيّن لنا أنه أدرك عدم كفاية الطاقة الصوتية في جامع "شاه زاده محمد" وحاول تقويتها بالطرق الطبيعية؛ حيث قام بتوسيع محفل المؤذنين، ووضعه بجوار قدم الفيل الكائن في الجهة الجنوبية الغربية للمسجد، بالإضافة إلى وضع شرفة للمؤذنين بجور كل قدم من أقدام الفيل الثلاثة المتبقية، وذلك من أجل الحصول على طاقة صوتية عالية. ولكنه وضع بالحسبان أن فروق الطَّور في الأمواج الصوتية الصادرة من المواقع المختلفة، ورنين الصوت الزائد، ربما يؤدي إلى صعوبة في فهم الصوت وتلقّي تردداته المنخفضة. لذلك عمل سنان في جامع السليمية على توضيح الصوت؛ حيث وحّد الأصوات فوضع محفل المؤذنين تحت القبة مباشرة، فاستطاع بذلك توصيل الطاقة الصوتية إلى فُتَح الجرّات الصغيرة الموضوعة في القبة، وتوزيعها بصفاء ووضوح إلى حرم المسجد، وبذلك تحقق المنال. ■

(*) كاتب وباحث تركي.

ممدوح يلدريم*

خبراء الاتصال

هل تعلم، أن بعض الحيوانات مجهَّزة بأجهزة خاصة للاتصال فيما بينها؟ أجل، فكثير من الحيوانات تملك أنظمةَ اتصالٍ تستطيع من خلالها تحذير أقرانها من الخطر دون إشعار أعدائها بذلك، وتتمكّن عن طريقها من التعرف على أجناسها وبنات جنسها أيضًا.

تمثِّل الفيلة نموذجًا رائعًا لهذا الاتصال، حيث تُحدث اهتزازات عندما تطأ الأرضَ بأرجلها فتتمكّن من الاتصال بالفيلة الأخرى. كلنا يعرف أن الفيلة تتمتع بحياة اجتماعية متميزة، وأن المعمِّرة منها تحظى بمكانة رفيعة واحترام كبير من قبَل الفيلة الأخرى، وأن خراطيمها حساسة للغاية.. ولكن مَن منّا يعرف ميزة الاتصال فيما بينها؟

قامت جامعة استانفورد بالدراسات والبحوث العلمية حول الفيلة وطبيعتها، فوجدت أن الاهتزازات الصادرة عن وطأة قدم الفيل، تمكّنه من الاتصال بأقرانه؛ فالضجيج الذي يُحدثه بأقدامه، يصل -بطبيعة الحال- إلى مسامع الأحياء القريبة منه، ولكن الغريب، أن الفيلة الموجودة على بعد عشرين أو ثلاثين كيلومترًا تسمع هذه الاهتزازات الصادرة عن هذا الضجيج أيضًا وبكل سهولة، وهذا يساعدها على اتخاذ الحيطة والحذر عند أي خطر من الأخطار.

وقد قام الخبراء بإجراء بحوثهم هذه، في إفريقيا، ومصر، وتكْساس، فوصلوا إلى نتيجة تبيّن فيها بأن الفيلة تتمتع بميزة إحساسِ أدنى اهتزاز أرضي أو رجّة أرضية، وهذا ما يسهل عليها الاتصال ببعضها البعض من خلال ضرب الأقدام على الأرض.

إذا كنا -نحن البشر- نملك عقلاً نستطيع من خلاله قراءة الحياة وفهمها وتطويرها بشكل مستمر، ونصل عن طريقه إلى العلم وحقائقه ونكتشف أسرارًا وخفايا لا تخطر ببال، فكيف لهذه المخلوقات معرفة هذه الأنظمة التي تذهل العقول وتأخذ بالألباب؟ وفي أي أدغالٍ إفريقية طوّرت نظام التفاهم هذا فيما بينها؟ وأي قدرة علّمتها تمييز ملايين الأصوات عن بعضها البعض وانتقاء أصوات بنات جنسها؟! ■

(*) كاتب وباحث تركي.





مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 20222631551+
الهاتف الجوال : 20100780831+
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir - Türkiye

Tel: +90 (232) 274 22 15

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
Phone: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210 Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي:
شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
Phone-Fax: +966 1 2815226

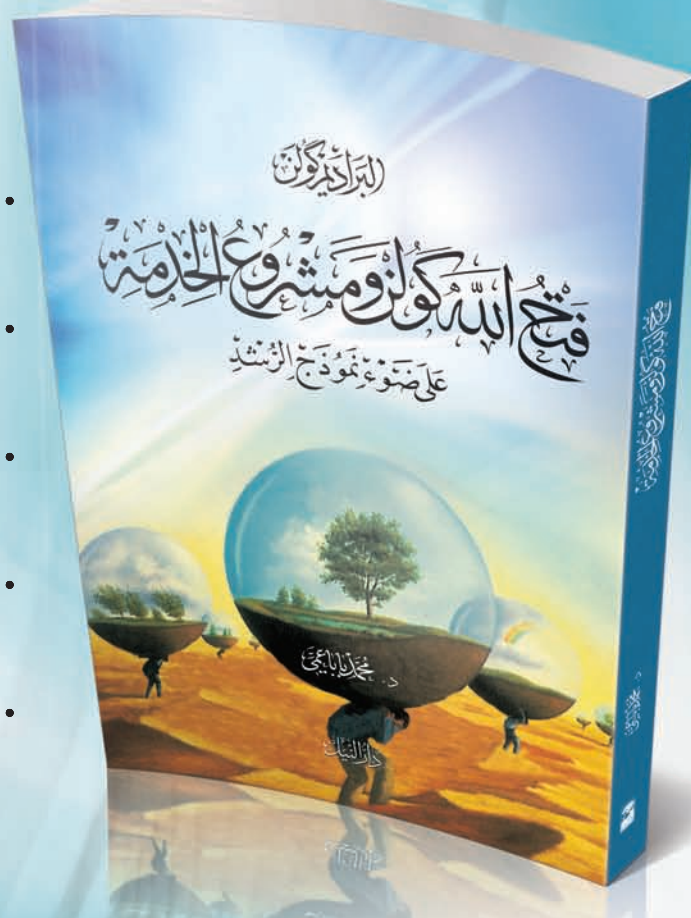
MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution, d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

البراديغم كولن

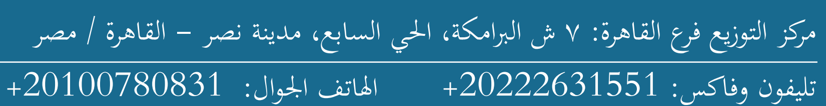
فتح الله كولن ومشروع الخدمة

على ضوء نموذج الرشد

د. محمد باباعمي



- دراسة معمَّقة في فكر الأستاذ "فتح الله كولَن".
- اللقاء الحميمي بين قمم الفكر الديني وقمم الفكر الحضاري.
- تسليط الضوء على الطاقة التفجيرية لقدرات الإنسان العملية والفكرية.
- مصطلح "الخدمة" ومضامينه وأبعاده في فكر الأستاذ "فتح الله كولَن".
- المدرسة كوحدة من وحدات تأسيس الفكر الإيماني والعلمي على حد سواء.







روح الكون

لُبَابُ الكون ضراعة، وقلب الوجود حزمة دعاء،
بهما يحيا، وبهما يواصل الحركة والحياة...
وحتى أولئك الواصلون،
غيرَ متنِ الدعاء لم يركبوا، ولولاه لم يصلوا...
وركام الثلوج وجبال الجليد،
أكانت تذوب لولا حرارة أرواحنا...
فها هو القدر بمدَدٍ من عنده يمدّنا،
وبنفحاتٍ من تأييده ينفحنا،
وكأنه علينا يحنو، وبنا يطرب،
وبقدرتنا على التجديد ينتابه الفرح، ويملؤه السرور...

* * *

تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم

